# حـــرب الصقـــور

د. إيهاب سلاّم

روايـــــة

رقـــم الإيــداع: ٩٣٥٤ - ٢٠٠٤
الترقيــم الدولــى: ٦ - ٤٢٩ - ٢٨٧ - ٩٧٧



**دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع**

٥٠ شارع الشيخ ريحان - الدور الأول - شقة ١٢
عابدين - القاهرة ☎: ٧٩٥٤٢٢٩
E-Mail: sbh@link.net

# الفصل الأول

## أكاليل الغار تمزقت

عـــند شاطئ القناة، وفي خنادق قريبة من الشاطئ، جلس الجنود يـــثرثرون، وقـــد أمسكوا ببنادقهم بقوة، وقد طفقوا يتكلمون، فقال مجاهد في فخر:

– أنا من عائلة عسكرية .. الجد لواء. وأخوه لواء في الشرطة. والأخ الثالث لواء في البحرية. أما أبي فهو عقيد (ولم ينطق متقاعد واكـــتفي أن يـــرددها فـــي سره) وأخوه لواء أركان حرب. وأخوه الـــثالث رائد طيار. وأخوه الرابع نقيب في القوات البحرية. وأخي مـــلازم أول فـــي الجيـــش. وأخي الثاني ملازم في الطيران. وأنا عسكري في القوات المسلحة على الجبهة.

سأله أحد زملائه قائلاً:

– ولـــم لم تحاول أن تطلب منهم نقلك من الجبهة إلى إدارة من إدارات القوات المسلحة في العباسية مثلاً.

– أنـــا أريد أن أموت شهيداً .. وأرفض أن يتدخلوا في حياتي. كلمة واحدة قلتها لهم: ليس لكم دعوة بي؟ .. اتركوني في حالي.

– يبدو فعلاً انهم لم يتدخلوا. لكن لم تريد أن تموت شهيداً؟..

– لأن مـــا نفعلـــه ذلك جهاد ضد الصهاينة. وفي الجهاد إما أن تنتصر أو تموت شهيداً ..

– ألا توجـــد حالة أخرى أن تصاب بعاهة؟ .. تقعدك عن العمل وعن الحياة وعن المتع.

ضرب يده بيده وقال وقد وضع البندقية بجواره:

- هذه فاتت عليّ ..

- نحـــن يا بني في حرب الآن .. حرب بين الصقور والحمائم. وغالـــباً مـــا تنتصــــر الصقور. وعادة ما تسقط الحمائم في مخالب الصقور. وإذا أفلتت فهي تفلت جريحة.

تدخل أحد الجالسين في الخندق وقال:

- أنـــت تبسط الموضوع. إذا كان الصقر ناعساً والحمام ماكراً فعادة ما يسقط الصقر في شباك أعدها له الحمام.

- يا عيني .. يا عيني .. على الشعر.

تدخل أحد الجنود القابضين على سلاحهم، والنائمون في الخندق بلا مبالاة:

- هناك حالة رابعة لم يذكرها الدفعة ..

- وماهي؟

- حالة المهزوم العائد دون خسائر جسدية ولا معنوية. ففي حرب يونية كنت أعاني الهزيمة، وأنا أسير في الفيافي الجنوبية من سيناء. لا أعرف الطريق إلى العريش ولا الطريق إلى القنطرة شرق. أرتدي ملابســـي العســـكرية وأحمـــل ســـلاحي في يدي غير هياب القوات الإســـرائيلية المحمولـــة .. لم يكن يهمني من أي دوريات إسرائيلية. وفجـــأة رأيت امرأتين عربيتين، تصنعت العجز، وسقطت أمامهما، وطلبت شربة ماء، أسرعت الإعرابية إلى خيمتها، وحملت إليّ سطل مـــاء. والأعـــرابية العجوز - كما يبدو، لأنهما كانتا ملثمتين - تبدو مـــنزعجة. ولمـــا اســـترحت وأكلت وشربت. طلبت مني الإعرابية

الصــغيرة أن تسـندني إلى داخل الخيمة. أقول لكم يا أخواني كانت سنداً لدناً رخيصاً، ولو أن رائحتها كانت كرائحة الخراف. لكني كنت حمامـة مهيضـة الجـناح متورمة الساقين. سألتها: ألا يوجد معكما رجل؟ .. قالت إنه يرعي الغنم بعيداً عن البارود وحيث يكون الكلأ. رغـم أني أمضيت معهما أربعة أيام وقد اخفيا سلاحي عن الأنظار وارتديت لباس الحريم إلا أنهما لم تكشفا عن وجهيهما. ورغم أنها - الصـغيرة وكـنت أعـرفها من صوتها - لامستني كثيراً بيدها أو صدرها أو قدميها، غير أني لم أر وجهها. ويبدو أن أمها كانت قابعة أمامهـا بالمرصـاد حتى لا تكشف عن وجهها. وساندتني لأعوم في البحر الأحمر حاملاً سلاحي من رأس سدر إلى الشاطئ المقابل. لما عرفت أني استطيع السباحة شجعتني على الإقلات من سيناء. ورأيت هناك بريمة البترول متوقفة. وحراسة إسرائيلية عليها توطئة لنهب ما لمصر من بترول فيها. غير أن أحداً لم يرني وأنا أتستر بالليل. كانت تحـب المداعبة رغم شظف العيش الذي كانت تعيش فيه هي وأمها. وقـالت لـي: حـذار أن تأكلك سمكة. وسبحت إلى الشاطئ الآخر. وسـلمت نفسي لأقرب وحدة عسكرية ومعي سلاحي. حافظت عليه مثـلما حـافظت على نفسي. وهاأنذا الحالة الرابعة أعود بعد حرب الصـقور والحمـائم. أعـود مهزوماً غير مثخن بالجراح وفي يدي سلاحي. ألست أنا الحالة الرابعة؟

قال مجاهد الراغب في الاستشهاد: - أنت النقطة الرابعة.

ضـحك الجنود المؤهلات. وتبسم بيومي الراوي متصنعاً أنه لم يفهم اللوذعة التي أطلقها مجاهد.

***

دخل ضابط إلى الخندق، وتحرك الجنود وانتبهوا تعظيما لقدره، وسأل وبجانبه شاب آخر يبدو أنه ضابط: - أين مجاهد عبد السميع؟ .. تقدم مجاهد مفزوعا وهو يقول:

- تمام يا أفندم.

ألتفت الضابط إلى الشاب وهو يرتدي ملابس الجنود دون إشارة إلى انه ضابط لأن موقعة على جبهة القتال يحول دون ذلك، قال الضابط:

- هذا أخوك الملازم أول عبد الموجود.

انتحي به جانباً خارج الخندق وسأله:

- لم أتيت؟ ..

- أمك تسأل عنك. تريد أن تراك. أريد أن تتقدم بإجازة من أجل عينيها.

قال مجاهد: قل لها سوف آتي في الوقت المناسب. ألا تعرف أننا في حالة حرب.

قال عبد الموجود: أنا مستعد أن اكلم لك قائد الكتيبة فهو أستاذي .. يعطيك تصريحا بالخروج. ونذهب معاً في سيارتي.

قال مجاهد: شكراً .. لا أريد وساطة من أحد .. سوف أنزل في دوري.

- لن تقوم الحرب الآن يا مجاهد .. إننا في حالة استرخاء عسكري.

- أنت لا تدري شيئاً .. لأنك تعمل في القاهرة.

لـــم يكـــن الفـــرق بين الأخوين كبيراً. كان مجاهد في الحادية والعشـــرين مـــن عمـــره. وكان عبد الموجود قد تخرج من الكلية الحربية واصبح ضابطا وهو لم يتعد العشرين من عمره. كان أخوه الأصـــغر لكن لم تسمح رتبته أن تأمر جندياً للإمتثال لأوامره لأنه أخوه الأكبر.

لما عاد مجاهد إلى الخندق من جديد، سأله بيومي:

- من كان ذلك؟ ..

- إنه أخي.

- ولم جاء؟

- جاء يأخذني لأرى أمي.

- ولم لم تذهب؟

- أنا أفضل البقاء هنا.

- هنا في هذا السعير. أتدخل جهنم بقدميك. يا بني هذه الحرب لا ناقـــة لـــنا فيها ولا جمل .. إن كل ما تفعله الشعوب العربية هو الصراخ من أجل حقوق الفلسطينيين وعودتهم إلى الديار وتعويضهم عـــن الخسائر التي حاقت بهم. إنهم يناضلون بالكلمات. إن الحرب الـــتي أتيت منها حرب خاطفة. لم تستغرق ست ساعات. وكنا كلنا إما شهيد وإما جريح وإما شارد في الصحراء وإما ..

قاطعه مجاهد ضاحكاً:

- وإما عاشق لبدوية.

ضرب رأسه بيده اليمنى مسلماً سلاحه ليده اليسرى وقال:

- يا خرابي.!! .. كانت كقطعة القشدة المغلفة بكيس أسود. كنت تشعر بجمالها وهو وراء حجاب.

ضحك الجنود المجاورين لهما في الخندق.

***

جاء بعد منتصف الليل نفر من زملائهم عادوا من مهمة عاجلة، سألوهم:

- أين كنتم؟

قال واحد منهم:

- كنا في معركة مع الإسرائيليين.

- ونحن لم نستعد بعد؟ ..

- لقد حاولوا دخول بور سعيد عن طريق رأس العش فكبدناهم خسائر فادحة.

- هذا أمر جميل كيف تم؟

- إن الزحف والتصويب والطلقات المتواصلة يلزم بعدها أخذ حمام ساخن .. وليكن بارداً لا أهمية للأمر .. حتى أتمكن من أن اسرد عليكم وأنا مرتاح.

- ابن الثرى يريد أن يمارس الرفاهية في أرض المعركة.

- ألا يكفيني فخراً أنني مزقت إكليل الغار الذي علقه ديان على صدره افتخاراً بسيطرته على سيناء والضفة الغربية لنهر الأردن والقدس الشرقية ومرتفعات الجولان .. أكاليل الغار تمزقت يا أخواني.

# الفصل الثاني

## العقيد المتقاعد

العقيد عبد السميع حميدة يجلس يقرأ القرآن في هدوء. يدخل عليه ابنه عبد الموجود. تتلقاه عين أمه بقلق ولهفة: أين مجاهد .. ألم يأت معك؟ .. يقول عبد الموجود: لم أشأ أن أفتعل فضيحة في كتيبته .. فهو مهما كان أخي الكبير. ولا أستطيع أن آمره ولو أني ضابط .. رفض أن يأتي معي.

نظرت الأم إلى العقيد، وقد توقف عن قراءة القرآن، وسألته: أترى ماذا فعل الولد يا عبد السميع؟ قال: أتركيه. إنه مع الأيام سوف يعقل. تساءلت: ماذا فعلنا حتى يتركنا فجأة ويترك كليته، وهو في السنة الأخيرة، لينضم إلى الجيش. قال عبد السميع: يريد أن ينتهي من سنوات تجنيده. ليس في ذلك شيء.

ألتفت عبد الموجود وقال:

– موقعة جديدة يا أبي خضناها مع اسرائيل. ظفرنا فيها بالنصر.

– آه .. أتقصد الغواصة إيلات؟ ..

– نعم .. وقبلها رأس العش.

– على العموم، قد تتعلم اسرائيل أنها حين ظفرت بالأراضي الكثيرة كانت تأخذها من قادة لا دراية لهم بالحرب .. الآن .. سوف تتراجع عن غرورها وتأخذ حذرها. سوف تصادفها مشكلة فيما بعد لو ضمت الأراضي التي فتحتها فيجب عليها أن تمنح

شـــعبها حقوقـــاً سياســـية كاملة. وفي هذا قضاء على دولة يهودية منتظرة وإما أن تعيد الأراضي إلى أصحابها وهذه كأس مر سوف تتجرعها بقسوة.

- يا أبي إنها لن تفكر أياً من الأختيارين.

- إذاً فلن تعيش في أمان أبداً.

- يا أبي.. ما دامت مقتنعة أنها أقوى دولة في الشرق الأوسط فلن تسلم الأراضي إلا بالقوة.

- وأيـــن هي هذه القوة؟ .. كان يقول الخرع إيدن. وها هو فقد هيبـــته تمامـــاً. إنـــه كان زميلي في حصار الفالوجا. كنت لا أزال ملازماً. وكانت عنجهيته بادية للكل. هل يستطيع ذلك المغرور أن يعيد تأسيس القوات المسلحة من جديد بعد انهيارها؟ ..

- لنا أمل في روسيا.

- إن أول عمـــل فعله بعد النكسة .. تسريح الضباط الأكفاء من القـــوات المســـلحة وأنـــا مـــنهم .. ماذا كنا نفعل وقائد عام يقول أنسحبوا؟ !.. هل نبقى حتى نواجه الموت؟ ..

- لا داعـــي لذكـــر هـــذه الذكريات يا أبي .. إنها تقلب عليك المواجع.

عـــاد الـــرجل يقرأ: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوكم ...

وأز جـــرس الباب. قامت الأم لترى من الطارق. وجدته عامل الـــبرقيات يسـلمها بـــرقية. حملت البرقية بعد التوقيع باستلامها، وقدمـــتها لـــزوجها وهـــو يواصل قراءة القرآن الكريم. توقف عن

القـــراءة وفتح البرقية ثم قال بعد أن قرأها: عباس سوف يصل إلى القاهرة غداً.

انشرحت الأم وسألت: عباس أخوك؟ ..

قال الأب: نعم. الدكتور عباس. يبدو أنه اصبح من غير اللائق أن يـــبقى فـــي أمريكا بعد أن انتهت بعثته منذ سنة. لقد ذهب إلى أمـــريكا بزعم العلاج من كليته. ثم حول العلاج إلى تعليم. وها هو يظفر بالدكتوراه وجاء ليسدد ما عليه من دين للبلاد.

ســـأله عبد الموجود: هل يا ترى سوف يذهب إلى شركة القناة التي كان يعمل بها بعد أستقالته من الجيش؟

قال الأب: الله أعلم .. وهل الشركة تعمل الآن بعد غلق القناة؟ ! .. عباس طموح فعلاً .. ولا يكتفي بما وصل إليه. لقد ضغط على أبـــي مـــن أجـــل بيع منزله حتى يتزوج. ولم يبق مع امرأته التي تزوجها سنة واحدة. وضاعت النقود هدراً. وقرر السفر إلى أمريكا لـــلعلاج وقـــلب الوضع هناك إلى دراسة. ساعده المشير عامر - رحمة الله عليه - في ذلك. كان يغدق كثيراً على معاونيه. والدكتور عباس قبل أن يكون دكتوراً كان من فرقة المشير. وهو الذي دفعه للإستقالة من الجيش ليعمل في شركة قناة السويس للملاحة البحرية بعـــد تأميمها. يوم أصدر عبد الناصر قرار تأميمها كان عباس من ضمن الحراس على الشركة واستقال يومها من الجيش وتقلد وظيفة هامة هناك. والمشير هو الذي قرر أن يُعالج في الخارج. وهو الذي ضمه إلى البعثة التعليمية في أمريكا.

سأل عبد الموجود: وهل سيأتي مع زوجته الأمريكية؟ ..

قـال عـبد السـميع: ربما .. ولكن هل سوف تطيق العيش في مصر؟ .. أنا لم أر أمريكا لكن الأفلام الأمريكية الراقية تدلك على أن بها عزاً لم يشهده أحد. لم أر إلا موسكو بفقرها وثلجها وتخلفها ونساءها البدينات. ..

قاطعـته الأم: ومـا لهـن البدينات؟ .. وما شأنك انت ببدينات روسيا؟

نظـر إليهـا، فلاحظ انها أزدادت وزناً في الأونة الأخيرة. قال ضاحكاً: إنهم كن يثرن اشمئزازي .. اما الآن فقد عرفت قدرهن!! .. تقول له: يا رجل إن كتاب الله بين يديك.

ذكرته كلماتها بالحرب. كان يقرأ في كتاب الله عند الفجر، حينما شـقت الطائـرات الأفـق كالصقور متجهة إلى القاهرة. طائرات اسرائيلية. حاول أن يتنبأ ما سيكون مصيرها. كانت الفكرة القديمة الراسـخة عـنده أنها لن تعود. سوف تستطيع حمائم المصريين أن تقتنصـها. ولم يعرف كيف يمكن للحمائم أن تقتنص صقوراً؟ ! .. وتصـرف من تلقاء نفسه فأصدر أمره إلى الجنود أن يكونوا على أهـبة الاستعداد للمعركة الضارية. ومنعهم من حفر الخنادق، تلك المهمة التي أوكلتها له القيادة. أمرت أن يحفر الجنود غير المدربين خـنادقهم كأنمـا كـانوا يحفرون قبورهم. وفي ساعة أخرى كانت الطائـرات تغيـر عـلى الموقع. وفر الجنود غير المدربين، لكن الرصـاص حصـدهم. وتخفى في زى مدني حينما انهار الموقع. جلـباب وعمـة أعـرابي. وقاد السيارة والقيادة تتصل به لاسلكياً وتأمره بالانسحاب. وأصدر أوامره للضباط والجند الذين لا يزالون على قيد الحياة بالانسحاب. ماذا كان ليفعل أكثر من ذلك؟ .. تركوا

وراءهـــم البنادق والأسلحة ولم يكن قد أنضم إليهم سلاح الدبابات، كان مختفياً مموهاً في مكان آخر. عاد من جديد إلى القاهرة. وسلم نفسه للقيادة العامة هو وسيارته وسائقه وجهاز اللاسلكي الذي كان معه في السيارة. وطلب منه قائد اللواء أن ينتظر في معسكر القيادة حتى تصدر الأوامر الجديدة. وتنحي القائد الأعلى ثم عاد إلى الحكم وجماهير الشعب تزأر بالفرح .. بم يفرحون؟ ..

أســـند إليه المسئولون الجدد قيادة كتيبة من كتائب الأحتياط في دهشـــور. وبـــدأ ينظم الكتيبة من الصفر. يستقبل الجنود الأحتياط والجنود المقاتلين – الذين لم يقاتلوا – الفارين من المعركة الناجين بأنفســـهم غيـــر المشـــوهين. وجُهزت الكتيبة بالأسلحة وبالمعدات العســـكرية. وأمر بإجراء تدريبات يومية عسكرية ورياضية للجنود بـــدلاً مـــن النزهة اليومية وسط خيام الكتيبة. فليس من المقبول أن يُعـــلفوا يوميـــاً ولا يقوموا بأي تدريبات. وحرر رقيب أول الكتيبة أرانيـــك الذنب للمتغيبين العائدين. وبدأ يوقع عليهم العقوبات. حبس المقـــدم عـــبد الســـميع كـــل متغيب أسبوعاً. وأمتلأ سجن الكتيبة بالمعاقبين. لم يذهب إلى بيته طوال شهر كامل. كان يتصل بزوجه هاتفياً فقط. وهو يواصل إعداد الكتيبة للقتال ويحولها من كتيبة بلا تدريـــب إلى كتيـــبة مقاتـــلة مائـــة في المائة. يستيقظ في الصباح ويحضـــر طـــابور الصباح. ويتفقد احوال الكتيبة من الخيام إلى أن يصـــل إلى المطـــبخ. ويأتي المساء ويسمع هتاف طابور التمام من مكتبه الذي لا يهدأ.

فجـــأة تســـلم أمر إحالته إلى التقاعد. هل الرجل ينتقم من أفراد دفعته الذين يعرفونه جيداً الذين عملوا معه في الفالوجا؟ .. ربما ..

ولكـن لـم يكن وحده في ذلك الأمر. كان هناك زملاء آخرون لم يشـتغلوا مع الزعيم المفدى وأحالهم إلى الاستيداع بل إن منهم من كـان حاصـلاً على شهادة أركان حرب من القوات المسلحة ومن روسيا مثله.

يـتذكر قول صديق له إنه أحيل إلى الاستيداع بسبب أنه غادر الموقـع فـي سيناء قبل أن يغادره كل الضباط والجنود والمعدات. وهـل كـان سـيبقى حتى يموت؟ .. إن ذلك معروف على السفن الحربية ولكنه معروف أيضاً على الأرض. يا سيد عبد السميع أنت أخطـأت. أخطأت فهل ذلك يستأهل أطلاق النار عليّ؟ .. لقد وشى بـك الضـباط الذيـن نجوا من الكتيبة. وكان بعد أن تقلدت كتيبة الاحـتياط ونقلـتها من القاع إلى القمة. ألا كان ذلك يستأهل بعض الـثواب؟ ... إنه الآن يحيا في ملل .. ولولا قراءة القرآن لما طاق حياته. ولربما كان قد انتحر، فهو لم يتجاوز الخمسين من العمر ولا يمكن أن يقضي العمر الباقي في شقاء الملل. وهذه المرأة البدينة لا تتركه في حاله .إنه لا يتدخل في أعمال البيت. لا تمنعه أن يتدخل فـي المطبخ ولا الكنس ولا المسح ولا توجيه الخدم. إنما تريده أن يتدخل. إنها صورة معاكسة للمراة المصرية ولو أنها بدينة مثلها.

# الفصل الثالث

## الدكتور العائد

أعلن القبطان باللغة الإنجليزية وصول الطائرة إلى مطار القاهرة الدولي. نهض الدكتور عباس بعد أن استقرت الطائرة على الأرض وأمـــام الممر. وزوجه الأمريكية في أثره دائماً، تضع يدها في يده. وصدرها على ذراعه، كأنما تذكره أن هناك أنثى تفيض حباً تمشي بجـــواره. لو كنت استمررت بالقوات المسلحة حتى الآن لكنت في مرتبة لواء على الأقل، لكنني انسحبت وأنا نقيب. أوصاني المشير أن أنسحب من الحياة العسكرية بعد استئصال كلية من كليتي. كانت ملتهـــبة مـــتوقفة عن العمل مليئة بالحصى. ثم طلبت منه أن أتولى شـــئون العاملين بالشركة المؤممة. وتزوجت بنت المقاول طمعاً في مـــال أبيهـــا لكن التأميمات كانت قد حجمت طموح المقاولين لذلك تقوقـــع ولـــم يحاول أن ينمي شركته ولم يغدق على ابنته كما كنت أتصور. ضاع البيت الذي باعه أبي من أجل زواجي منها وهو ما كان قد بقى له من حطام الدنيا. وأخوتي اعترضوا. ورثة المستقبل رفضـــوا ضـــمنا وليـــس جهراً. كان يجب أن يبدو العريس لائقا بصاحب شركة المقاولات فلم يتردد أبي في البيع.

كـــان أبـــوه يفضـــله على أخوته لنبوغه وذكائه الفارط، ولعل صـــورته كـــانت نسخة من صورته لذلك أحبه حباً جماً كأنه يحب نفســـه فيـــه: عيناه الخضراوان النجلاوان. رأسه الضخم. وجسده العملاق. وبياضه الناصع. شركسي السمات مثله.

لولا أنني لم أقطع الصلة بالمشير لكنت الآن لا زلت موظفاً في شركة القناة، استمررت على علاقتي الخاصة به وكنت عيناً له في المـــرفق الكبير. ذلك أحد واجبات الوظيفة ولم أرض بهذا الوضع، أفـــلت منه ببقائي في أمريكا. كان المشير يتدخل في الحياة المدنية مثلما يتدخل في الحياة العسكرية، كنا أدوات له فهل الأداة يمكنها أن ترفض أو تحجم. لقد أشتد بي المرض فنصحني بالسفر إلى أمريكا لـــلعلاج. ســـافرت على حساب الدولة، ولما تم الشفاء واستردتت صـــحتي. طلـــبت مـــن المشير أن أدرس الدكتوراه فلم يمانع. كان يعـــرف نـــبوغي المبكر، وأنني انتسبت إلى كلية التجارة أثناء فترة الجيـــش، وحصـــلت عـــلى البكالوريوس بامتياز، فأمر المشير أن تـــتحول الإقامـــة في أمريكا من مريض إلى طالب. وانخرطت في البعـــثة التعليمية في أمريكا وأصبحت تتلقى راتباً شهرياً. وها أنت تعـــود يا دكتور وقد تغير كل شئ: مات المشير. وتوقف المرفق. وتزوجت للمرة الثانية، ناسبت أمريكا نفسها. تزوجت أمريكية حتى لا تقطع خط الرجعة على نفسك فيمكنك أن تعود إلى أمريكا. وهل كان يجب أن استمر مع المصرية المتكبرة المغرورة التي ظنت أنها مـــلكت الدنيـــا بحفـــنة من الجنيهات، أنا ألعب الآن بالدولار. كنت تعـــرف أنها لن تلحق بك في أمريكا فطلبت منها ذلك فرفضت فما كـــان عـــليك إلا أن تطلقها. أنت تخطط جيداً يا عباس قبل أن تقدم عـــلى أي عمل! .. وعدت حتى لا تتعرض لدفع المصروفات طبقاً لقـــانون البعـــثات. عليك أن تخدم زهاء خمس سنوات. والله لو لم يعجبـــني الحـــال فلن أتردد أن أركب أول طائرة إلى أمريكا. هذه الأمـــريكية تجيـــد الحياة في جو شاعري ملئ بالحب وليست مثل

المصرية التي كانت تبحث عن الغم. كانت تحبك في جو مادي ملئ بالإنفاق. والصرف. يا دكتور لقد طلقت المصرية حينما عرفت أن أباها على شفير الإفلاس. تدهورت حال الشركة بسبب انكماش السوق المصرية. وأنت أدري الناس بما يفعله الانكماش الاقتصادي!.. وأنت تزوجت الأمريكية حتى تحصل على البطاقة الخضراء ثم الجنسية وقد تعود إلى أمريكا بعد تسديد ضريبة البعثات فتعيش في النعيم هناك.

غير الدكتور موضوع الحديث في ذهنه قسراً حينما بدأ يجلد نفسه: من سوف يستقبلني يا ترى؟ .. لا يجوز أن يواجه نفسه كثيراً وإلا تعذب!! ..

وشاهد في المطار جيش أمه الذي تركته ورحلت مبكراً. أخوه عبد السميع الأخ الكبير العقيد المتقاعد كما بلغه سراً من زملائه. عاشا فترة من الزمن في الأحضان والقبلات. وذلك الرائد الطيار عبد الغني، لابد أنه أصبح بلا عمل الآن، بعد أن أعلنت إسرائيل أنها حطمت الطيران المصري مثلما حطمته في عام ١٩٥٦. وذلك الأخ الصغير النقيب بالقوات البحرية منصور، جاء خصيصاً من الإسكندرية لرؤيتك، ثم أخواته البنات علوية وصفية وأميمة.

كان ينقص المطار أن يأتي أبناء هؤلاء الأخوة وبناتهم وأزواجهم وزوجاتهم. ولكن أقتصر الاستقبال عليهم دون فروعهم. ولم يأت الرجال بالملابس الرسمية إنما جاءوا بزي صيفي خفيف. كانت الحرارة لا زالت جاثمة على أنفاس القاهرة. وجاءت النساء بين محجبة وسافرتين.

ركب الدكتور عباس في سيارة عبد السميع، بعد أن أمطر أخوته وأخواته بالقبلات والأحضان، وعرّف زوجه بهم. ولم يكن يصحبه طفل إذ أنهما تزوجا منذ شهر تقريباً. كانت هي الطبيبة المعالجة له أثناء مرض الكلية وتصاحبا وتحابا فترة البعثة الدراسية وفي الأيام الأخيــرة طـــلب منها الزواج فلم تمانع. لم يطلب منها الزواج منذ خمـــس ســـنوات لأنـــه كان يختبر عواطفها وهي تختبر عواطفه. المجـــتمع هناك مفتوح يبيح للشخص أن يختبر العواطف فترة من الدهـــر مع من يحبها حباً حتى النخاع، وقد يتركها أو تتركه. وقد يلتقيان أمام المأذون أو بالأحرى أمام الموثق.

طـــلب من أخيه أن يأخذه إلى شقته التي تركها. وقال: عسى أن تكـــون أميمة قد كنستها ومسحتها وزينتها .. قال عبد السميع وهو يقود سيارته الصغيرة: لا بد أن أميمة كانت تزورها على الأقل مرة كـــل أسبوعين. كانت المطلقة المصرية قد تركت أثاثها في الشقة. أين كانت سوف تضعه في بيت أبيها أم في مخزن أمين. بيت أبيها مـــلئ بالأثاث والمخزن يحتاج إلى مصاريف. ومن يقبل أن يتزوج امـــرأة على أثاث رجل آخر. لذلك فضلت تركه لهذا الانتهازي - كمـــا كـــانت تسميه - على أن تحرمه منه. خاصة أنه أرسل إليها نفقـــتها ومهرها المؤجل وقيمة هذا الأثاث بصك على البنك الأهلي المصـــري. ولم تتمكن أن تصرفه بالدولار واضطرت أن تصرفه بالجنيه المصري. وكان الفرق بين الدولار في المصرف والدولار في السوق السوداء عشرة قروش على الأقل. ولم تأبه للخسارة. كان من أسباب طلاقها - الظاهر - أنها لم تلحق به في أمريكا. ولكنها تعـــرف أن السبب الرئيس هو أنها لم تكن تنجب. وقد اعتبرته أنه

عقيم. ويبدو أن استئصال الكلية قد أثر على إمكانيات الإنجاب. غير أنها اكتشفت أن العيب منها وليس منه. فقد تزوجت بآخر واضطرت إلى العلاج من العقم. هكذا أخبرته أميمة في أحد خطاباتها الكثيرة إليه. كانت أخته الصغيرة هي التي تراسله وتخبره عن العائلة وأبنائها والأخبار التي تهمه. كانت - رغم طلاقه منها - لا تزال صديقتها تودها وتزورها في بيتها بعد أن تزوجت وأميمة نفسها تذهب إليها ولم تقطع حبل الصداقة بينهما.

***

اضطر أن يسلم نفسه في اليوم التالي إلى الشركة المؤممة. وبادره رئيسها أن ليس له عمل الآن. فقد شغل مكانه آخر، وأن الشركة متوقفة عن العمل لحين إزالة آثار العدوان، وعليه أن يبحث عن عمل، حتى إذا عادت الملاحة إلى القناة، يعود إليهم. وخرج من مكتبه، وهو يهمس لنفسه: فلنلتق في المشمش.

كان عليه أن يبحث عن الأصدقاء القدامى، فإن لديهم الحل السريع لمشكلة الارتزاق. كان عليه أن يقدم أوراقه إلى الجامعة ليعمل بها، فالدكتوراه الأمريكية مفتاح الدخول لأي جامعة مصرية.

بدأ يدير أرقام الهواتف ليكلم أصدقاءه لحضور حفلة في بيته بمناسبة عودته الميمونة إلى البلاد.

حضر الحفلة جمع من الأصدقاء القدامى. بعضهم تعرف به في أمريكا. وبعضهم كون صلته به في الجيش. تركوا المناصب العسكرية واستولوا على المناصب المدنية. كان هناك جمال وزوجه الحلوة يعمل دكتوراً في معهد التخطيط. وعاطف أستاذ مساعد في

كـلية التجارة. ويونس مدرس بكلية الزراعة. يصاحبان زوجيهما الأجنبيتين. وفي الجانب الآخر سعيد العازب أبداً، متعدد العشيقات. وأخـوه صــلاح طبيب النساء البدين بدانة ملحوظة لا يزال يعمل بــالقوات المســلحة فــي أحد المستشفيات العسكرية، ترافقه زوجه العصفورة الصغيرة. ولبيب مدير عام معهد الإدارة المحلية وزميله الســابق في السلاح، وهو متزمت، لا يسمح لزوجه بزيارة أحد أو حضــور حفلات عند أحد، لكن لا مانع عنده من أن يزور ويحضر الحفــلات منفرداً. حتى أن عباس سخر منه قائلاً: إنه يحب العزف المــنفرد. كان مستقبل هؤلاء معروفاً لديه، مستقبل باهر بلا شك. يمكن الاستفادة منهم دون أن يشكو واحد من طلباته.

انتحي فريق الرجال ركناً في الصالة الكبيرة. وانتحت النساء في ركــن آخــر كعــادة أهــل الشرق، رغم أنهن كن ثلاث أجنبيات ومصــريتين. كــانت الأغلبية للأجنبيات لكن فضلن الانسياق وراء المصريتين في طبعهما الشرقي.

بادر عباس المجتمعين قائلاً:

- تغيرت مصر .. ولكنن للأسوأ.

قال سعيد: إذا ما دخلت في العميق، فسوف تكتشف الأهوال. إن الحرب ... بل الحروب امتصت كل ما لدينا من زاد. حرب ٥٦ .. حرب اليمن. حرب يونية. كله صرف .. ولا موارد .. هناك. وما زاد الطيــن بــلة .. اســتيلاء إسرائيل على بترول سيناء ومعادنها وتوقف القناة.

قال جمال وهو حاصل على دكتوراه في الاقتصاد الزراعي من أمريكا أيضاً حيث تعرف هناك على عباس وصادقه:

- العيب فينا .. لقد دخلنا قطاع الصناعة عنوة واقتداراً ونسينا بل أهملنا القطاع الزراعي ...

أعترض عاطف وراح يقول:

- لقد كانت الصناعة مزدهرة لدينا يا عم جمال .. لكن تأميمها أدي إلى تدهورها ..

كان الحديث بينهم يدور باللغة العربية، بينما كان يدور مع النساء باللغة الإنجليزية. ولم تكن المصريتان قاصرتين في الحديث بتلك اللغة، فقد عاشت زينب - زوجة جمال - معه في أمريكا، وأنجبت ولديها على أرضها. وذهبت شاهيناز - زوجة صلاح - معه إلى أمريكا، وهو يتدرب على التطورات الجديدة في طب أمراض النساء. وأمضيا حوالي تسعة شهور هناك.

كان حديث النساء يدور حول أدوات التجميل وأحسن الطبخات المصرية، وأروع المحلات التي تبيع الملابس المستوردة. قالت شاهيناز:

- لا تذهبن بعيداً .. إن شارع الشواربي ملئ بالملابس المستوردة .. الواردة من لندن وباريس وبرن.

قالت كرستينا زوجة عباس:

- لا تنس أن تأتي لي صباحاً لنذهب معاً لشراء ما أريد ..

سمعت المرأتان المصريتان من الجهة الأخرى حيث يجلس الرجال قول الدكتور عباس:

- لا بد أنه قُتل ..

قامت شاهيناز عند سماعها الكلمة الأخيرة، وانتقلت إلى مجلس الرجال، واستمعت إلى الدكتور عباس يقول:

- المشـــير كان محباً للحياة. لقد عشت معه وأكلت معه وتكلمت معـــه. ولا أعقل لحظة أنه يمكن أن يفكر في الانتحار. كان يفيض حيوية، ومغرم بالحياة حتى النخاع.

سألت شاهيناز وهي تقف على رؤوسهم:

- ولم قتل؟ ..

- حتى يبدو أنه حادث انتحار فراراً من تحمل المسئولية والفشل العسكري والهزيمة المنكرة. تعالوا حينئذ اسألوا شخصاً ميتاً .. هل يتكلم؟!..

قالت ضاحكة:

- لكنه كان صديق عبده .. الروح بالروح.

رمقهـــا الدكتور عباس بعينيه المتسائلتين الخضراوين الواسعتين كنجوم السينما الأمريكية:

- من عبده؟ ..

- ألا تعرف عبده؟ ..

هز رأسه وهو يقول في ثقة: لا ..

ضـــحك الجميع. وقال جمال هامساً: إنها تسمي سمي عبده لأنه إما أن يكون عبد الناصر .. وإما أن يكون العبد المفتري.

عـــاد الضـــحك لـــلجميع، لما فهم الدكتور عباس المقصود من قولها، فراح يقول:

- حينما يكون الحب في كفة والسلطة في كفة أخرى من الميزان، فكفة السلطة تُرجح.

هزت رأسها وعادت إلى مجلس النساء.

أمسك الدكتور عباس دفة الحديث وراح يقول:

- إن التيار الجارف في أمريكا خاصة في مجلس الشيوخ هو مناصرة إسرائيل. ولا سبيل إلى أضعافها أبداً لحساب الدول العربية. ورئيس الجمهورية ليس مؤثراً مهما كان رأيه. لا يوجد في التاريخ الأمريكي أحد من كبار راسمي السياسة وصل إلى السلطة ولديه فهم واضح بمشاكل النزاع العربي الإسرائيلي وتعقيداته، والديمقراطيون والجمهوريون متفقون على شئ واحد هو بقاء إسرائيل، لذلك فالرؤساء على دين أحزابهم.

# الفصل الرابع

## قسوة الأب

عـانق الدكـتور عباس أخاه الكبير العقيد المتقاعد عبد السميع، وصـافحته زوجـه رئيفـة. وعـانقت كرستينا رئيفة بحرارة، ثم صـافحت عـبد السـميع. جاءا إليه في زيارة للتعارف بين زوجه وبيـنهما. وقـال عـبد السميع لنفسه: لو كنت في أمريكا لعانقتني وقبلتني، ولكن الشرق شرق. والغرب غربٌ.

سأل عباس: أين الأولاد؟ ..

قـال عبد السميع: مدحت - بعد خسارة الطيران الكبرى سافر إلى بعـثة إلى روسـيا للـتدريب عـلى الصواريخ الموجهة ضد الطائرات الفانتوم. أما عبد الموجود فهو ضابط في إدارة المدفعية. ومجاهد في الجيش يؤدي الخدمة العسكرية.

أندهـش عـباس، وزوجـه تجلس بجانبه على كنبة الصالون، تلتصـق بـه كأنه سيهرب منها، وهو يضع يده على فخذها، وعبد السـميع يقـول لنفسـه: قحبة. ألا تعلم أن مثل هذه الحركات غير مستسـاغة أمـام الناس في مصر، لم لا تترك ذلك حينما تكون في منزلهما فتلتصق به على انفراد كما تشاء.

قال عباس: أليس مجاهد ما يزال في كلية التجارة؟ ..

قـالت الأم: نعـم .. في السنة النهائية. وفجأة وجدناه يقدم نفسه لإدارة التجنيد ولا يطلب تأجيل تجنيده كما هي العادة. عرف أخوه عـبد الموجـود ذلك وحاول أن يثنيه غير أنه أصر وقال إنها سنة

وعدة شهور وسوف تنتهي. قال له أخوه سوف تفشل في الحصول على البكالوريوس. وربما تحصل على مقبول. أجاب بأن لا أهمية لذلــك .. مــن حصل على جيد جداً أو حصل على مقبول سيان .. ينتظران مكتب التنسيق للقبول في الوظائف.

سأل: أليس من سبب لتصرفه؟

أجاب عبد السميع: لا نعرف.

قال الدكتور عباس محللا الوضع:

- يــبدو أنها قسوتك يا عبد السميع على الأولاد. لم يجد أمامه وسيلة لكي يهرب إلا أن يتقدم بنفسه إلي التجنيد.

- أتدعي أنني قاس؟ ..

- نعــم .. وجدتــك قبل أن تسافر أنك تعامل الأولاد كأنك في معســكر. تفرض فيه الأحكام العرفية. تريدهم جميعاً عسكر وأنت الضابط.

- هل هذا كلام يا عباس؟

- أمن يقول الحقيقة .. يكون قد كفر.

- هذه ليست الحقيقة .. ما علينا .. غير الموضوع.

قال، وكرستينا تزداد التصاقاً به، وعبد السميع ينتقد تصرفها في سره: وإلى أي رتبة وصلت؟

- رتبة عقيد يا دكتور .. عقيد متقاعد.

صرخ متسائلاً: عقيد متقاعد؟ .. لم؟ ..

أجاب: لأن عبد المتجلي لا يريد غير ذلك.

أستغرب الدكتور عباس وتساءل: من عبد المتجلي؟

ردت رئيفة قائلة: يقصد عبد الناصر.

وهز رأسه كأنما فهم. وعبد السميع يقول: لم تعجبه الكفاءات في الجيش فسرحها. اعتبرنا جميعاً من أسباب النكسة أو الوكسة.

قال عباس مؤكداً بهزة من رأسه: إنني سوف أبحث هذا الموضوع مع زملائي. لا تعتقد أن ما دام المشير مات أو قتل أو انتحر أنه لم يعد لي أصدقاء. لا .. كثيرون وحياتك يتمنون خدمتي. سوف أبحث معهم هذا الموضوع وأرد عليك.

"كفى أونطة .. أتظن أنني أصدق."

أشار عبد السميع قائلاً:

- لا تبحث .. ولا تتعب .. الأمر انتهى.

- غريب أمرك يا أخي.

قالت رئيفة: هكذا استسلم لليأس. حتى الوظائف المدنية رفضها.

تأتي أميمة وهي تصحب معها ولديها الصغيرين. تصافح أخاها عباس وتقبله وكذلك زوجه. وأخاها عبد السميع وزوجه، وتقول: يبدو أننا وقعنا من قعر القفة ..

يقول عباس بثقة: لا .. لا تقولي ذلك يا أميمة .. أنت الخير والبركة. إن مقامك كبير عندنا.

ثم يسأل: أين زوجك؟ ..

قالت: يدرس دراسات عليا. إنه مشغول في الصباح في الوزارة وفي المساء في الدراسة.

سألت أميمة عباس: أين اشتغلت؟

قال: سوف أعمل في الجامعة. الملاحة معطلة في قناة السويس. والشـــركة وزعت موظفيها على الوزارات والمصالح. ففضلت أن أعمـــل فـــي الجامعة في مجال تخصصي. مدرس في كلية التجارة جامعة عين شمس.

- آه ستكون قريبة من السكن.

- نعم فركة كعب بين مصر الجديدة والعباسية.

- الحمد لله أنها نُقلت من المنيرة. الزحام صعب ومقرف.

- لا أهميـــة لذلك. سوف أتسلم سيارتي البويك من الجمرك بعد أيام من الإسكندرية. وسوف أسافر بها عائداً إلى مصر. لا بأس أن أذهب بها من البيت وأجيء بها من الجامعة.

- مبروك.

- الله يبارك فيك.

كانت كرستينا تسمع الكلام ولا تفهم، ومن حين لآخر يترجم لها الدكتور عباس كلمات ويهمل كلمات أخرى.

لمـــا جاءت أميمة، ترك عبد السميع لها محادثة الضيفين، فهي محدثـــة بارعة، وضحوكة، وتتمكن أن تنتقل من موضوع إلى آخر دون أن يمل المستمع. أما هو فأخذ يفكر في نظرية قسوة الأب التي رماه بها أخوه. أيكون فعلاً أن الولد قدم نفسه للتجنيد هرباً من حياة قاسية يحياها معي؟ .. هل كنت قاسياً عليه دون أن أدري؟ .. هل تحويل الحياة في الأسرة إلى نظام ودقة ومواعيد تعد حياة عسكرية ومـــن ثـــم تصبح الحياة قاسية؟ .. يا عبد السميع لم يتنفس المجند

الصـــعداء حيـــنما ينتهي تجنيده؟ .. وإذا ما عُرض عليه أن يكون مـــتطوعاً يرفض بشدة رغم المميزات الكثيرة التي سوف يقتنصها كالمرتب وبدل التعيين والمبيت خارج القشلاق؟ .. وهو يعرف أن لا وظيفـــة تســـنده في الحياة بعد انتهاء تجنيده؟ .. إذاً فقد عاملت أبـــنائي بقســـوة ولم أعرف، لكن الأول والأخير كانا مطيعين. فلم تذمـــر الثاني؟ .. الناس تختلف مشاربهم وقدراتهم على التحمل. لم كـــنت كسولاً بينما كان أخوك عباس نشطاً. ولم انزويت وأنت في الوظيفـــة وتقدم هو ليكون في مكتب المشير كمستشار عسكري له؟ .. أنـــت استسلمت للنظام والحياة الميسرة وهو كافح واستذكر وهو في الجيش وترك الجيش وسافر وحصل على الدكتوراه رغم مرض كليتيه.

# الفصل الخامس

## لا تعرف شيئاً

يـــندهش الجنود من سعة أفق بيومي كأنه عالم في أشياء كثيرة. يتكلم في السياسة والاقتصاد والاجتماع كأنه بحر. ولا يعرفون هل هو مؤهلات أم مجند عادي؟ .. هل هو صاحب شهادة متوسطة أم شهادة عليا؟ .. غامض لدرجة كبيرة. وإذا سأله أحد عن مؤهلاته، غيّـــر مجرى الحديث بأسرع ما يمكن. ولكنه شخصية جذابة متكلم طلق. يروى الحكايات المسلية في هذا الجو الخانق. كان يتكلم عن حالـــة اللاسـلم واللاحرب التي حاول أن يخرج منها عبد الناصر بحـــرب الاستنزاف. وأوضح أن روسيا لن تدخل معنا الحرب، ولو عـــلى رقبتها. وبين لهم أن أمريكا صنيعة إسرائيل وليس إسرائيل صنيعة أمريكا فمعظم رؤوس الأموال الأمريكية يمتلكها اليهود لذلك ستســـتمر أمـــريكا تحتضنها حتى آخر المشوار. وأكد لهم أن مهما فعـــل اليهود في الأمريكان، فسوف يقفون وراء تبرئة يدهم من دم المسيح، مع أن الثابت تماماً أن من صلبه هم اليهود؟ .. ويسأل أحد الجنود: كيف عرفت .. إننا نعرف أنه لم يصلب ولم يقتل وإنما شبه له؟ .. يهرب من السؤال المثير للمناقشة، ويقول لهم: أأقول لكم عن خصائص اليهود؟ ..

يستمع إليه الجنود من باب قتل الوقت ووأد الملل ومهاجمة القيظ وسخونة الليل ونسيانهما.

- زعــم اليهــود أنهم جنس نقي مثل الجنس الآري .. الألمان. لكن هذا الزعم هو دعاية من علمائهم لأنفسهم. والحقيقة أنهم صورة من صور السكان الذين يعيشون معهم. ومن ثم لا يؤلفون لا وحدة جنسية أو جينية ولكن يؤلفون فقط وحدة دينية.

يميل جندي على آخر ويسأل: ما هي الوحدة الجينية؟ .. يتهرب الجندي من السؤال فيقول: بعد أن ينتهي سوف أشرح لك؟ ..

استمر بيومي يقول: قرأت كتاباً يقول إن يهود عصر التوراة في فلسطين هم مجموعة سامية من سلالة البحر المتوسط بصفاتها التي نعــرفها ونــراها اليــوم تتمثل في سمرة الشعر والقامة المتوسطة وطــول وتوســط الرأس. لكن المؤلف يقول إن اليهود اختلطوا مع الكــنعانيين والعموريــن والفلسطينيين واصبحوا مجموعة عبرية مركبة.

سأل مجاهد كأنما يحاول أن يكشف أن بيومي مدع:

- أي كتاب؟ ..

أجاب بسرعة: اليهود للدكتور جمال حمدان. وهو يؤكد أن ليس بالعالم اليوم مجتمع يهودي واحد أفلت من الاختلاط البيولوجي مع غيره من المجتمعات اليهودية الأولى.

لكــز الجندي زميله وسأل: ماذا يعني بالاختلاط البيولوجي؟ .. ونطقهــا محرفة فأثار الضحك. رد عليه وقال: هذا رجل عالم بكل شــئ، أما أنا فلا علم لي بشيء. سله. ولكن الجندي لم يجرؤ على السؤال وخجل أن يسأل، وطفق يستمع.

- تصوروا أن الدكتور حمدان يقول إن اليهود الذين حافظوا على نقاوتهم لا يتعدون مائة أو مائتين ويقيمون في قرية من قرى نابلس، وهم في طريقهم إلى الانقراض. أتعرفون أن خصائص اليهود هي أنهم قصار القامة. والطوال منهم جاءوا من خارج مجتمعهم. يعني إذا ضربت اليهودي على رأسه ينضغط في الأرض ولا يظهر منه شيئاً. (يضحكون) قصر القامة هو وليد الجيتو الذي يعيشون فيه. تشجع الجندي وسأل:

وما هو الجيتو؟ ..

قال بيومي: إنه المجتمع المغلق. لا يخرجون منه ولا يسمحون لأحد بدخوله. المهم أن اليهودي ضيق الصدر، لأن أغلبهم ينكب على الخياطة والصباغة وصناعة الأحذية اليدوية. لكن إذا تحسنت البيئة التي يعيشون فيها فإن ذلك يوسع من الصدر. ويقولون عن اليهود إنهم سمر ولكن الواقع أنهم لا يتميزون بوحدة لونية معينة، فتجد هناك يهودي أسمر ويهودي أبيض. بل يهودي أسود، وهم الفلاشا في شمال الحبشة.

سأل الجندي، وهو مذهول من المعلومات: الفلاشا؟ ..

ضحك الجميع، وهم أنفسهم لا يعرفون المصطلح.

قاطعه مجاهد وسأل:

- ولم كل تلك المحاضرة؟

- أعرف عدوك يا دفعة.

- طيب .. أكمل.

انقطـــع الحديث، وانبطح الجميع فجأة، في وضع الاستعداد، أثر انفجـــار قريب منهم. دوى دوياً موحشاً. جعل قلب البعض ينتفض. والــبعض أنــتفض جسده كله. ثم استقروا على بنادقهم. ورأوا في الأفق نوراً ولهباً. وشاهدوا الانفجار يبدو كأنه بركان يطلق حمماً. ثـــم ســـمعوا صـــوت طائرات تأز وتعبر القناة الراكدة إلى الضفة الشرقية.

قال جندي: يبدو أنهم ضربوا قواعد الصواريخ التي كانت تُبنى لاصطياد الطائرات. مثلما فعلوا من قبل.

قـــال مجاهد: إننا نستنزفهم، وهم يستنزفوننا. أليس لهذه الحرب مـــن آخـــر؟ .. كنت أريد أن أهرب من بيتي وأنتهي من التجنيد بسرعة وأخرج إلى الحياة العملية معي شهادتي. وإذ بي أفاجأ بأنني دخلت في سجن الأهوال ولا أمل في الخروج.

قـــال بيومي: قواعد الصواريخ يجب أن تُبنى بأسرع ما يمكن. ويجب أن نعمل على التمويه. ولفت نظر العدو بعيداً عنها. إن هذه القواعـــد مصـــدات أكيـــدة للطائرات الفانتوم، ودونها سوف نكون عرضة للضرب في العمق.

قال الجندي المبهور بكلمات بيومي: يا أخي عالم بكل شئ. لم لا ترسل برقية إلى الرئيس بذلك.

قـــال بيومي: الرئيس ليس في حاجة إلى برقية. إنه يعرف ذلك. ثـــم العالم بكل شئ هو الله يا بجم. ما أنا إلا مجرد قارئ وأحفظ ما أقرؤه وأردده لتعلموا أو تستفيدوا.

عـــاد بيومـــي يقـــول: لا تخافوا من هؤلاء الصهاينة لأنهم لن يرهبونا. إذا خضنا المعركة معهم فسوف يتفرقون. لا يوجد تجانس بيـــنهم ولا وحدة وتنافرهم مطلق في الأصل والجنس فهل يتحدون في مواجهتنا؟ .. أبداً! ..

كان بيومي يتكلم كأنه يخطب في الجنود في غضب. وهو واقف فـــي الخـــندق رافعاً سلاحه. يبدو كعملاق خرج من بئر ووقف في داخله مرفوع الرأس.

يستمر بيومي في خطبته:

- هـــؤلاء الأفاقون لن يهزموننا. هؤلاء الذين يغيرون جلودهم بين يوم وليلة. كانوا يدعون أنهم من الجنس الآري أثناء إقامتهم في ألمانيا. والآن بعد أن اغتصبوا فلسطين يدعون أنهم ساميون.

التفت الجندي وقد هدأ روعه: ما الآري .. وما السامي؟ ..

لكزه زميله وهو يقول: يبدو أنك لا تعرف شيئاً.

***

جـــاء الـــتعيين وجاءت معه الأخبار وأتضح أن قاعدة صواريخ ضُـــربت بالقنابل. ومات العمال المدنيون فيها جميعاً. كيف عرف الصـــهاينة موقعها؟ .. وكيف تسربت أخبارها؟ .. يقولون إن القمر الصناعي الأمريكي يرصد المواقع أولاً بأول ويخطر إسرائيل بها.

انتحى مجاهد جانباً بعد الأكل مهموماً. لا سبيل إلى الخروج من هـــذه المصيدة! .. ظننت أن دخولي الجيش سوف يعفيني من نظام أبي الصارم. وها هي سنة تمضي، ولكن يبدو أنني سأبقى هكذا في الخـــندق، لا أحارب فاستشهد، ولا أكمل مدتي فأنطلق إلى الخارج.

إن كل ما عليّ الآن هو أن أستذكر هذه الكتب التي امتلأت برمال الخـندق، خاصـة مع تباشير الصباح حتى العصر. يجب أن انجح وأتخـرج في كلية التجارة، وحينما أعود إلى الحياة المدنية - ولو بعد عشر سنوات - يكون في يدي سلاح. إذاً لم لا تطلب نقلك من على الجبهة، وأخوك له اتصالات كثيرة تتوسط لك وأبوك أيضاً لا يـزال لـه معـارف رغم أنه كان مشهوراً بين القيادات أنه قاس وعنيف. يضرب بالقدم ويسب ويلعن من يخالفه ولا يقبل النقاش. لا .. لـو نقـلت إلى القاهرة، فولو أني لن اخرج من الجيش، فسوف يُصـرح لـي بالمبيت، وألاقي الرجل القاسي مرة أخرى .. لم أعد أطيـق الصـرامة ولا العنف. لا يتكلم ولا يناقش ولا يصدر عنه عـنفاً الآن. لعل الحياة العسكرية كانت تثير أعصابه فكان متوتراً بصـفة دائمة كانت تسبب له ضغطاً عصبياً فكان يتفجر باستمرار. والآن وقد هدأ لم لا تعود؟ ! ..

# الفصل السادس

## عسكري حنون

دخل بيت أخيه منصور النقيب بالقوات البحرية. صافح الدكتور عـباس زوج أخيـه. وصافحت كرستينا ثم ضمتها إليها لتقبلها في خديها الأيمن والأيسر كأن بينهما صداقة تليدة. وقالت:

- حمداً على السلامة.

ثم سأل الدكتور عباس، وهو يتفرج على الشقة ويتجول بعينيه فقط:

- أين منصور؟ ..

قـالت: إنـه يـأتي فـي الساعة الخامسة. لا يزال أمامه ثلاث ساعات.

قال عباس: جئنا إذاً مبكرين.

قالت: ألا تريد أن تجلس معي؟ ..

- كيف حالك؟

- الحمد لله.

- وحال الأولاد.

- البـنت الكبيرة ريهام حصلت على الثانوية العامة والتحقت بكلية الصـيدلة. والبـنت الصغيرة في السنة الثالثة الإعدادية وتنوي دخول الطب. والولد المولود بين الأولى والثانية في السنة الثانية الثانوية.

- عال .. عال يا فتحية.

سألت: هل تريدون أن تتناولوا الغداء الآن؟ ..

قال عباس: لا .. نحن نتناول إفطارنا في الساعة الحادية عشرة صباحاً. ونتناول الغداء في الساعة السادسة أو السابعة. نأكل مرتين في اليوم الواحد.

– أتتبع حمية معينة؟ ..

– نعـــم .. فأنت ترين الكرش قد تدلى (وأشار إليه) والجسد قد ترهل .. يجب إيقاف ذلك تماماً

– مع أنك كنت عسكرياً .. وكنت تلعب التنس. فماذا حدث لك؟ ..

– يبدو أن تحضير الدكتوراه والاسترخاء وأكل النشويات جعل الإنسان يفرط في البدانة.

ســـأل زوجه بالإنجليزية ما إذا كانت تريد أن تتناول الغداء الآن .. فأجـــابت ممتعضة: أين سأضعه في معدتي؟ .. إن المعدة مليئة للغاية! ..

ثم ألتفت إلى فتحية وقال لها: لننتظر عودة منصور.

وجاءت جلستهما في حجرة الاستقبال المطلة على البحر، وكان الهواء شديداً، يدخل الحجرة قوياً، فاضطرت فتحية إلى رده بإغلاق الشباك غلقاً كاملاً، وأضاءت أنوار الحجرة، سطعت من نجفة فخمة متدلية من السقف.

سألته وهي تعود إلى مجلسها:

– جئتما إلى الإسكندرية في فسحة أم في عمل؟

قـــال: جئنا حقيقة لأخرج سيارتي الخاصة من الجمرك. وبعض أشياء لنا معها. ملابس وثلاجة وغيرها. شحنتها من لوس أنجلوس في أمريكا. سوف تصل غداً.

- إذاً فأنتما معنا لمدة يومين أو أكثر ..

قال عباس: لقد حجزنا في فندق قريب منكم ..

- غيــر معقــول .. إن هناك حجرة رابعة في البيت خصصها منصور للضيوف.

- اتركينا على راحتنا يا فتحية.

لم تتمكن فتحية أن تتكلم مع كرستينا، فقد كانت قد أنهت تعليمها الابتدائي، ولا تعرف اللغة الإنجليزية، واستسلمت لحياة البيت التي فرضها عليها أبوها، وبالصدفة كان منصور في زيارة أخيها فرآها، فقــرر عــلى الفور الزواج منها. كان يريد أن ينقذ نفسه من حياة الوحــدة وملــلها، ومــن إقامته بلا أقارب في الإسكندرية. وتباعد الأصــدقاء عــنه لأنــه بــلا مواعيد. وما أسرع ما تم الزواج! .. وحضــره أخوتــه وأخواته وأبناؤهم. وكان أبوه قد ودع الحياة منذ سنة ومن قبل أمه.

كان عباس يتأمل حياته ويقارنها بأخوته، وهو ينتظر عودة أخيه من المعسكر أو من على ظهر بارجة أو مدمرة يعمل عليها: أخوه الكــبير قد أصبح لديه ثلاث أولاد. وأخوه عبد الغني ثلاثة آخرون. وها هو منصور ثلاثة أيضاً بل علوية مشت في نفس الطريق. أما صــفية فــلم تــرزق إلا بطفل واحد. وتفوقت عليها أميمة فأنجبت طفــلين. لكــنه يأمل أن ينجب من كرستينا على الأقل ولدين. أمن الممكن في هذه السن يا دكتور؟ .. أنت لم تنجب من زيجتك القديمة وكنت صغيراً فهل تنجب وأنت كبير؟ ..

***

جاء منصور متأخراً، فسأله عباس:

- قالت فتحية إنك تأتي في تمام الساعة الخامسة؟..

- ذلك كان زماناً .. إننا الآن يا صديقي في حالة طوارئ. منذ ضرب المدمرة إيلات وإغراقها من قبل قوارب الطوربيد المصرية. والحالة ج.

- سمعت فعلاً عن ضربها .. في أكتوبر الماضي.

- كـــانت المدمـــرة تقـــوم بأعمال دورية مقابل ميناء بور سعيد. (وأسهم ثم استطرد:) يعني من الممكن أن تقول إنها كانت تبعد خمسة عشر ميلاً مثلاً عن الميناء. ولمحها أحد قوارب الصواريخ المصرية من نوع اسمه (كومار). وأطلق عليها صاروخاً من نوع (ستايكس). وأصـــاب عـــلى الفور الغلايات وأرتكب طقم المدمرة تماماً. انقطع الـــتيار الكهربائي ومات عدد من الضباط. ولم يتركها القارب وشأنها إنمـــا عاجـــلها بإطلاق صاروخ آخر فأحدث بها أضراراً جديدة. ثم صـــاروخ ثالث فخرت ساجدة في البحر وغرقت. وسمع أفراد طاقم المركب انفجارات في جسمها ورأوها وهي تغرق نهائياً.

- وكم عدد الإسرائيليين الذين قتلوا؟ ..

- قيل إنهم سبعة وأربعين قتلى وتسعون جرحى.

تـــرجم الدكتور عباس ما قاله منصور لكرستينا. ودخل منصور ليـــرتدي ملابـــس مدنيـــة بـــدلاً من بذلة القوات البحرية البيضاء. امتعضت كرستينا من الرواية وقالت:

- ألا تعـــرف أن الإســـرائيليين صبوا نار غضبهم على مصر. وضربوا بالمدافع الثقيلة مصافي النفط ومصنع البتروكيمياويات في مدينة السويس. هكذا قرأت عن ذلك في الجرائد.

- نعــم .. وكــانت الخسارة جمة، قيل وقتها إنها ستة وثلاثين مليون جنيه.

عاد منصور من الداخل، وفتحية تقوم بترتيب حجرة المائدة. وقد ســمع طرفاً من كلام كرستينا حتى أنه قال لنفسه: هذه المرأة معهم أم معنا؟ .. المفروض أن تكون معنا لأنها تزوجت مصرياً ..

قــال منصــور: لأول مرة في التاريخ يحدث أن نغرق بارجة حربية بنيران صاروخ يصوبه طقم قارب عليها.

اســتمرت كرســتينا ممتعضــة، حتى دعتهم فتحية إلى المائدة، وأنضم إليهم أولاد منصور، وسألهم عن والدهم ضاحكاً:

- بابــا يفرض الأحكام العسكرية في البيت مثلما فرضها عمو عبد السميع؟

قالت ريهام البنت الكبرى:

- بابا حنون يا عمو .. جداً.

ضحك منصور وهو يقول: عسكري حنون.

قال عبد السلام ابنه:

- في بعض الأحيان يظن أنه على ظهر سفينة ويقود معركة حربية.

قال الدكتور عباس:

- هــذا طــبع ورثــناه عن أبينا رحمه الله .. لقد كان لواء في الجيــش. ومــات والأحكــام العسكرية استمرت. ورثها عنه عبد السميع.

وضحك الجميع.

# الفصل السابع

## عاصفة من النيران

كـــان الظلام دامساً، والقمر يسكن في المحاق، وبدأت القوارب المطاطيـــة تخـــرج من مكمنها، وتتزحلق إلى القناة. وركب مجاهد وبيومي وطاهر وزغلول ومرسي قاربهم مع ضابطهم متجهين إلى الضفة الشرقية من القناة. ذهبوا ليصطادوا رؤوساً قد أينعت وحان قطافهـــا، وبـــدأت المدفعيـــة تزمجر بطلقات كالهدير، عاصفة من الـــنيران اجـــتاحت الســـماء وســـقطت على الأرض، قنابل تغطي بوضوح على عبورهم الليلي إلى داخل سيناء.

لـــم يكن قارب واحد هو السابح فوق الماء، كانت هناك قوارب في جهات عدة تسبح في نفس الوقت. كانت نيران المدفعية لا تهدأ، وهـــم يعـــبرون. سنة كاملة مرت في هدوء وملل وصمت اللهم إلا بعـــض المناوشات من حين لآخر لكن قال لهم الضابط المرافق إن ساعة الانتقام قد حانت. وها هو القصف المدفعي على طول الجبهة الغربية يصدّر نيرانه إلى الجيش الإسرائيلي. ولعل بعض الصقور تُشـــوى الآن من قذائف الحمائم، حتى تعبر الدوريات فتجهز على البعض الآخر.

لما بلغوا الشاطئ، سكتت المدفعية كأنها تعرف المدّة التي سوف يعبرون فيها. ولم يكن بيومي يتكلم فلكزه طاهر قائلاً: سكت الآن؟ .. قال له: ليس هذا وقت المزاح .. المدافع تتكلم.

بينما مجاهد يفكر في عمق. هذا ما حملت نفسي به؟ .. كانت أمامي سنة كاملة أستطيع أن أقضيها مدنياً. وأتخرج. ثم أدخل إلى الجحيم بقدمي. لم أسرعت؟ ..

ظن الإسرائيليون أن المدفعية سكتت لأن القذائف قد فرغت. فبدأوا في إطلاق نيرانهم من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية كيفما تكون دون أن يعرفوا أين المواقع الحصينة وأين المواقع الهشة؟ .. فوجئوا بالنيران في ظهورهم، بدأت الحمائم الصغيرة تمطرهم بوابل من النيران في كل موقع وصلت إليه. واستداروا إليهم يريدون أن يقتنصوا منهم لكن الرصاصات المصوبة بدقة كانت أسرع منهم .. حصدتهم.

كان محدداً أن يستمروا ساعة في إطلاق النار ثم يعودوا .. سواء استطاعوا أن ينجزوا المهمة أم لم ينجزوا .. سواء استطاعوا قتل من في المواقع الأمامية من الصقور الجارحة أم لم يستطيعوا، وليبقوا الساعة كاملة ثم ينسحبوا. وليس عليهم أن يتلكأوا لأن النيران ستتحول إلى وابل على الضفة الشرقية قد تؤذيهم أو تقضي عليهم.

كان طاهر يقهقه وهو يقول: الله أكبر. كلما أصاب جندياً إسرائيلياً. لا يعرف رتبته لأن الرتب تُجرد من الجنود والضباط في مواقع القتال. واستطاع جندي أن يفر من موقع المدفعية، ويتصل بجهاز اللاسلكي بالمواقع الخلفية لكي تصل إليهم الإمدادات. غير أن طاهر لمحه وهو يتسلل ويعود وقد انهي مكالمته، فعاجله بطلقة استقرت في رأسه فأنبجس الدم منها. سقط على أثرها مضرجاً بالدماء. سأل مجاهد، والخوف يكاد يختفي من قلبه، والتعطش إلى الدم صار هاجسه:

- هل سنعبر هكذا من يوم لآخر؟

قـال بيومـي: يـبدو أن القيـادة لا تريد أن تجعلهم يشعرون بالراحة. يكفي سنة كاملة أو اكثر من سنة على احتلال سيناء.

نظر مرسي في ساعته متمعناً وقال:

- يا رجال .. حان الآن وقت العودة.

تسـللوا وهـم يسمعون طلقات عشوائية تنطلق من الموقع الذي هاجموه. وقد أحصى كل رجل فيهم عدد قتلاه.

اسـتقلوا القـارب عـائدين إلى الضفة الغربية. ورأوا القوارب الأخرى تتجهز للعودة. وبدأت المدفعية المصرية تصب نيرانها من جديـد على الضفة الشرقية. وانطلقت طلقات مليئة بالغيظ من تلك الضفة. تعلن في مرارة أنها أصيبت في مقتل.

عادوا وحال لسانهم يقول: يا ليتنا ما عدنا.

وجدوا بعض زملاء في الخندق قد استشهدوا والبعض قد جُرح. وقعت قذيفة في الخندق فدمرته تدميراً كاملاً. وكان عليهم في ذلك الوقت أن يناموا في العراء. وغداً يبدأون في إصلاح الخندق وإعادة تـرميمه. كان الخندق على مرمى من نيران المدفعية الإسرائيلية، وهمس بيومي للضابط: اعتقد أنه يجب أن نتحرك بعيداً عن مرمى الـنيران. نظـر إليـه الضابط باستغراب كأنما يقول له: ما دخلك أنـت؟!! .. لا يـريد الضـابط أن يتدخل جندي في الاستراتيجية العسـكرية. ولـم يعلق الضابط على توصية الجندي. وحينما قابل القـائد بعـد انتهاء المهمة قال له: أعتقد أن علينا أن نزحزح هذه الخنادق بعيداً عن مرمى النيران. قال القائد: غداً نعاين المكان ونبدأ الحفر بعيداً عن مرمى النيران.

قـال بيومي لمجاهد: كنت تريد أن تستشهد يا عم .. لكنك عدت سالماً .. وقتلت عدداً من اليهود أولاد عم العم سام هل يعد المقتول فـي هـذه الحالة شهيداً؟ .. قال مجاهد: إنهم كفرة مغتصبون كيف يعدون شهداء؟ ..

قال بيومي: لا تنس أنهم دخلوا الحرب وعقيدتهم تقول لهم نفس الكلام الذي تقوله لنا عقيدتنا. ثم أردف بيومي قائلاً: أحمد الله على النجاة أولاً. وعلى أنك أديت الامتحان قبل هذه الغزوات الضروس.

قال مجاهد: كل ما أنا قلق عليه هو النتيجة.

– علـى العموم إدارة الأعمال ليس فيها محاسبة أو رياضيات. إنها كلام في كلام.

– كلام في كلام .. ماذا عرّفك أنت؟ ..

– ماذا عرّفني؟ .. أنا أبو العريف.

وجـاء زميل لهم ينعي الجندي الظريف الذي كان يسأل بيومي دائمـاً عن معاني الكلمات التي يتحدث بها. استشهد متأثراً بجراحه في المستشفى. أنهمر الدمع من عيني بيومي. بكى بحرقة كأن أحد والديه مات.

وفـي الليل البهيم، تذكر مجاهد لقاءه مع أبيه عندما حصل على إجـازة ليـؤدي امـتحان الكلية الأخير. كان عطوفاً حنوناً. تغير الأب!!.. أكـان ذلـك بسـبب إقصـائه مـن الجيش فزالت عنه الضغوطات القادمة من الحياة العسكرية. غير أنه كان منطوياً على نفسـه ممـا أدى إلى استمرار التباعد بينهما. وعاتبه عبد الموجود يوما على أنه ما يزال معرضاً عن أبيه، أنفجر غاضباً وهو يقول: أأترك المذاكرة وأتفرغ للتغزل فيه؟ !..

# الفصل الثامن

## الزواج الخفي

استقر الدكتور عباس في القاهرة، وبدأ يركب سيارته البويك كل يوم في الصباح، ليلقي محاضراته في كلية تجارة عين شمس، وقد تـــرك ضاحية مصر الجديدة وراءه حيث منزله الذي لم يفرط فيه رغــم طلاقـــه ورغــم ســفره إلى أمريكا، فقد كان إيجاره زهيداً، اســتطاع أن يرســله سنوياً إلى أخته أميمة. وكان من حين لآخر يرســل إليهــا مبلغاً من المال هبة لها، فأميمة هي الوحيدة من بين أخوتــه القريبة إلى قلبه. ويكفي أنها كانت ترعى شقته أثناء غيابه فـــي أمـــريكا. ولـــم تكن تتكبد شيئاً يذكر، كانت تأخذ خادمتها كل أســبوعين أو شـــهر، وتذهـــبان لتنظيف الشقة. بينما الخادم تكنس وتمســح، وتقوم هي برفع التراب الغارق في الأثاث القابض على الـــتراب لا يجعلـــه يفـــر مـــنه. بعد أن ينتهي الدكتور عباس من محاضـــرته، يـــركب سيارته مرة أخرى، ليقوم بإعطاء دروس في معهـــد الإدارة المحلية، وهناك يلتقي بصديقه لبيب مدير المعهد. ثم يعود إلى زوجه كرستينا قبل العصر، ويتغديان وينامان قليلاً .. تلك العـــادة المصـــرية الـــتي لم يستطع أن يهزمها في أمريكا .. بلاد النشـــاط. ثـــم يخـــرجان معاً بعد ذلك لزيارة الأصدقاء أو الأخوة والأخوات.

كانت الزيارة في ذلك اليوم عند أخته علوية الأرملة ذات البنات الثلاث.

قالت كرستينا وهما في الطريق من مصر الجديدة إلى شقة أخته بالعجوزة:

- يبدو أنك استمرأت الحياة في مصر .. إلى الأبد؟ ..

- أتريدين أن نعود إلى أمريكا؟

- أعتقد أن حياتنا هنا لن يكون لها مستقبل. هناك يمكن أن تعمل بالأعمال .. وفي نفس الوقت .. ترضي حبك للتدريس في الجامعة.

- يجب أن أراسل بعض الجامعات في أريزونا أو لوس انجلوس أو سان فرنسيكو أو نيويورك.

- لا ابتعد عن نيويورك .. إنها تعج بالزحام.

***

استقبلته أخته استقبالاً حافلاً. كانت تعرف أنهما سيردان لها الزيارة في ذلك اليوم فأعدت كل شيء من صنع يدها. إنها ماهرة لكنها ذات حظ سيئ. مات زوجها في مقتبل العمر، وآثرت أن تتفرغ لبناتها، ولم تنضم إلى بيت أحد ولزمت بيتها، واكتفت بمعاشي زوجها وأبيها بعد أن توفى على أساس أنه كان يعولها قبل وفاته. جمعت بين المعاشين بحكم القانون. واستطاعت أن تربي البنات اليتيمات. وبرزت الأولى - عالية - في كلية الطب، وتزوجت وسافرت للعمل في المملكة العربية السعودية. وترنحت الثانية - كاميليا - في معهد السكرتارية العالي، ولم تتمكن أن تبلغ السنة النهائية إلا بعد عناء، واشتغلت بعد تخرجها في أحد الفنادق. والثالثة - وفاء - تعرفت بكويتي، جذبها إليه، وتزوجته ورحلت

معـــه إلى الكويت، على أساس أن تستكمل دراستها هناك. لا تعيش معها الآن سوى كاميليا.

تأمـــلها الدكتور عباس بإمعان: إنها كتاب مفتوح أمامه. حياتها اليوميـــة لا تـــتغير. مجرد ربة بيت. حياتها بلا أسرار. كل أخواته كـــتب مفتوحة هو الكتاب الوحيد المغلق لا يعرف أحد طلاسمه. لا يعـــرفون علاقاته مع علية القوم واتصالاته العميقة والحفلات التي يقيمها ولا يدعو أخوته أو أخواته إليها. يلتقي فقط بأفراد العائلة من حين لآخر ولكن لا يتكلم عن نفسه إلا كلاماً عاماً. كلهم يعرضون عـــليه مشـــاكلهم ويعـــرض عليهم الحلول لها. ولكنهم لا يعرفون مشـــاكله ولا يطـــلب منهم حلولاً لها. يذكر أنه لما لمح لأخيه عبد السميع بقسوته، أبدى استنكاره لقوله، ووعده أن يبحث حالة عودته إلى الجيـــش، لكـــنه لم يهتم، هكذا يوعد ولا يهتم بتحقيق الوعد. لا لأنـــه غير قادر لكنه يأبى أن يطلب من أحد خدمة إلا لنفسه .. لا يـــريد أن يحمل نفسه جمائل عليه أن يسددها فيما بعد. ولعل قسوة عبد السميع قد لا تعيده إلى الجيش، ولا ذنب له في ذلك، لأن حياة الجيـــش صعبة، وتعود على هذه الحياة في زمن اللواء الأب، ولكنه مطـــالب أن يكـــون صبوراً وليس عنيفاً. وتذكر منصور الحنون، والذي كان يرفض الحياة العسكرية، لكن ميله للانطواء جعله يلتحق بالقوات البحرية.

اكتفت علوية بترديد ما يعرفه:

- عاليـــة تعمل الآن في السعودية. وكاميليا تعمل في فندق ولا تـــأتي إلا الســـاعة الثامنة. ووفاء في الكويت كما تعرف منذ زمن. أقضي وقتي وحدي. أنتما آنستماني.

غــروره يجعله يقول لنفسه: لا تروي غير القشور، ولأن ليس عــندها غير القشور. لولا الواجب لما جئت. كان يترجم ما ترويه لــزوجه بالــلغة الإنجــليزية، رغم أنها أصبحت متآلفة مع اللهجة العاميــة المصــرية. وعــلوية تنتظر حتى ينتهي من ترجمته، ثم تواصــل ثرثــرتها عــن الجو والطقس وإيجار المساكن الجديدة، ورحلاتهــا إلى الكويت. التذاكر غالية الثمن لكن وفاء ابنتها تدفع. وتنوي أن تذهب إلى السعودية لكن إجراءات الدخول عقيمة.

تلــتقط كرســتينا بعــض الكلمات، وتتذكر دروسها في الجامعة الأمــريكية في اللغة العربية واللهجة المصرية، وتسأل زوجها عن المعنى إذا غمض عنها كلمات.

كــانت عــلوية تخفي قلقها من استمرار زيارة عباس، تريد أن تمضي إلى الخارج، لكن كان عليها ألا تبدي أي نأمة يستشف منها عباس أنه غير مرغوب فيه.

أعدت الشاي والحلويات المختلفة التي صنعتها بيدها حتى تنتهي مــن واجــب الــزيارة. ووجد عباس أنه لم يعد هناك ما يتكلم فيه فأستأذن هو وزوجه وانصرفا.

كــانت علوية مثله لا تميل إلى إذاعة أسرار حياتها، وهي مليئة بالأســرار والأحداث، لكن تغلق عليها باباً فولاذياً لا ينفتح إلا بأذن مــنها. وقلما تسمح بفتحه. إنها تحيط نفسها بالغموض، وتبدو أمام الــناس كأنهــا تحيــا حيــاة عادية لا جديد فيها. ولو تعمق الناس لاكتشفوا أهوالاً .. سواء فيما يخصها أو فيما يخص بناتها.

كان عليها أن تلبي ميعاداً مع زوجها الخفي. تزوجت في الخفاء زواجــاً عــرفياً من مقاول ثري، حتى لا تفقد معاشا زوجها وأبيها

المتوفيين - معاشان أحدهما مدني والآخر عسكري - ولم تعلن ذلك الزواج بطبيعة الحال، ولا حتى لأخوتها أو أخواتها، أو حتى بناتها. كـان يجب أن تقتنص المتعة في السر بعيداً عن العلانية. ولم تكن تضمن أن يستمر المقاول الثري متزوجاً منها، فإن له زوجة وأولاد أيضـاً، وما أرتبط بها إلا لأنها تبدو رشيقة، قوامها - كما يقول - مياس، لدن. وكانت زوجه قد تقدمت بها السن، وترهلت، وهاجمتها الأمراض كأنما تنتقم من أيامها الأولى مع الصحة.

الـتقطت سيارة أجرة، متجهة إلى الزمالك، حيث عش الزوجية السـعيد. إنهـا مـتأكدة أن الرجل طريح غرامها. وما تزوجها إلا بسبب بياضها الناصع، فهو أسمر اللون يريد أن يعوض عن لونه، وعيناها الخضراوان، مثل عيني أخيها عباس .. ميراث من سعادة اللواء حميدة. ونظراً لسوابقها في الزواج، فقد استمتع بها، ولم يكن ليستمتع بها لو كان الزواج رسمياً فهكذا الزواج الرسمي سرعان ما يرسـل الزهد إلى قلب الرجل نحو امرأته أو العكس، وينظر دائماً إلى الخـارج. لكـنه زواج على سنة الله ورسوله وبشهادة شاهدين عـدل، ومكـتوب وموقع علي الوثيقة منهما ووقع عليها الشاهدان، إنهـا لا تقـبل أن يكون اقترانها برجل مخالفاً للشرع. وليس ذلك المقـاول الثري ثاني رجل في حياتها. لقد سبقه كثيرون. تزوجت كـثيرين وزهـدت فيهما، أو زهدوا فيها، لكنهم تباعدوا عنها وهم أحباب ولم يعد واحد منهم يذكرها أو تذكره. واختلفت علة الطلاق من رجل لآخر.

فـتحت الباب، فوجدت قنديلاً جالساً ينتظرها. ونهض ليحتويها في يديه، ويسأل:

- ما الذي أخرك؟ ..

قالت ممتعضة: كان أخي الدكتور عباس في زيارتي.

سألها: أقلت له شيئاً عنا؟ ..

قالت: وهل هذا معقول؟ ..

إنهـا لا تـروي لأحـد شيئاً، ولا حتى هذا المقاول. كلمته في العموميات مثل غيره. بل لم ترو له قصة ابنتها. قصة المأساة التي عاشتها سنوات ثلاث مأساة أسود من قرون الخروب. ولا أهمية أن قـنديلاً زوجهـا، فلا يجوز أن يعرف كل شيء عنها مثلما هي لا تعـرف أي شـيء عنه. كما لم تحك شيئاً عن ظروف كاميليا ولا وفـاء. تـلك التي تزوجت بكويتي. إن زواجها منه ليس له نصير فكيـف تسـلم أسرارها له؟ ... وهي ما تزوجت إلا لترضي نفسها وترضي طبيعتها . كيف تعيش حياة طويلة دون رجل؟ ..

# الفصل التاسع

## تبرير الإثم

كـــان الدكتور عباس يظن أن صفوت زوج أخته أميَمة شخصاً عاديــاً، لذلــك عامله عند أول لقاء له باستهانة وترفع، وكانت قد تزوجـــته وهـــو لا يـــزال في أمريكا، ولم يقدم له صفوت فروض الطاعة والولاء مثلما يقدمها له أخوته وأخواته وزوجاتهم وأزواجهم المتمثـــلة في مدح ذكائه وعلمه وتحركاته. كان الدكتور عباس يعد لدى أسرته جوهرة فريدة في نوعها، وقد أصابه الغرور بسبب هذا الـــتفرد المـــرموق، وينـــتظر المدح في كل حين، لكن صفوت لم يعاملـــه تـــلك المعاملة التي يزيد فيها التبجيل أكثر من اللازم. وقد زاره مـــرة واحدة في بيته، وقدمت له أخته ما لذ وطاب، وابتهجت كرستينا من المعاملة الكريمة. وبقي صفوت صامتاً كأنه قطعة من حجر حتى لا يعطي الفرصة لعباس أن يترفع عليه أو يقلل من شأنه أو لعلـــه كـــان يقيس فعله ورد فعله من خلال مراقبة تحركاته مع الآخـــرين. وأدرك عـــباس أنه أمام شخص مختلف عن باقي أفراد العائـــلة، كان صفوت موظفاً عادياً في إحدى الوزارات، لكنه كان يكتب مقالات تُنشر له في الصحف، وكان قد أنهى دراسته العليا في كلية الحقوق، وتوجها بتقديم رسالة للدكتوراه. وكان يظن عباس أنه أمـــام إنسان لا كفاءة له، غير أنه فوجئ بأن في العائلة من ينافسه على لقب دكتور، تلك المرتبة التي لم يبلغها أحد في العائلة وجعلته فريداً فيها. إن صفوت ينافسه الآن على ذلك اللقب، وسوف يصبح دكتوراً مثله، ولا يعرف كيف شعر بالغيرة من هذا الموظف المعدم

وهـــو الدكـــتور الثري؟ .. هل هذه الغيرة بسبب أن صفوت سوف يحصـــل في يوم ما على الدكتوراه؟ .. ولكنك سبقته في الحصول عليها وهو يدب بقدميه في مجال ليس مجالك وأنت متميز باشتغالك بالجامعـــة والاستشـــارات المـــتعددة لأجهزة مختلفة. لكن إزاء هذا الشـــعور الغـــريب نحو صفوت، صار لا يرضى أن يلتقي به لذلك أمتـــنع عن الذهاب إلى أميمة حتى لا يلتقي بزوجها. ففي مرة ثانية جادله صفوت بما له به علم ولم يكن يعلمه، فعصف به هذا الشعور الغـــريب، وجعله يتوتر. ولم تهتم أميمة لعدم زيارته، وأدركت أنه يتعالى عليهما بعد أن عاد دكتوراً قد الدنيا، فليتعالى على نفسه!! .. ولم تسأله عن أسباب انقطاعه عنهما.

غير أن عباس كان يزور أخاه عبد الغني، ذلك الطيار الذي تمت ترقيـــته مـــن نقيب إلى رائد نتيجة أنه أبلى بلاء حسناً في ضرب أهـــداف فـــي العمق في سيناء وكبد العدو عتاداً وجنوداً. كان عبد الغني أقرب الأخوة إليه رغم أن من المعروف أن زوج عبد الغني تكرهه. ورغم ذلك كان عباس يزوره، ربما لإغاظة تلك الزوجة .. كانت الزوج تتخذ موقفاً عدائياً من عباس، فقد كان من الأفراد غير المؤيديـــن لزواجها من عبد الغني لأنها فلاحة جاهلة. فقد اعتبرها الدكتور عباس من طبقة أدنى من الطبقة التي ينتمي إليها، وأن ذلك ســـوف يـــؤدي إلى أن يصـــبح عبد الغني متخلفاً .. سوف تجعله ينحدر. لذلك حينما يتصل عباس بأخيه عبد الغني يخطره بالزيارة، كمـــا هو متبع في تقاليد الناس في أمريكا، كانت وداد تترك البيت وتأخذ أولادها إلى النادي. وإذا عاتبها عبد الغني على هذا التصرف تقول له بفظاظة: أنا حرة!! ..

ولـــم يكـــن يتخذ معها أي إجراء، لأنه كان يحبها فيما مضى، وأصـــبحت الآن أم أولاده فـــي الوقت الحالي. وكان يعهد بواجب خدمـــة الضـــيوف إلى مشيرة بنت خالتها التي جاءت من الأرياف لـــتدرس فـــي كـــلية الاقتصاد والعلوم السياسية في القاهرة بعد أن تفوقت في الثانوية العامة.

كانت مشيرة تقوم بتقديم الشاي والحلوى، ثم تتصرف بأدب إلى حجـــرتها لتســـتذكر دروسها. ويجلس عبد الغني مع أخيه عباس، وزوجـــه كرستينا ويدور الحديث عادة باللغة الإنجليزية. ولا تسأل كرســـتينا عن زوج عبد الغني، فقد عرفت عداءها الشديد لزوجها، وكان أول رافض للزيجة التي تمت رغم أنفه، وكان اعتراضه مثار استغراب من جانب عبد الغني لأنه كما كان يقول لم يقف عقبة في زواجـــه من بنت المقاول فلم هو يتدخل في حياتي؟ .. ولم يحضر عباس الفرح، وتعلل بالعمل الثقيل في الجيش ثم الشركة المؤممة.

تتدخل كرستينا في الحديث خاصة إذا ما مس الموقف العسكري ومس أمريكا بالذات، وتقول:

– لا تنـــتظرا من أمريكا أن توقف مساعداتها لإسرائيل ولا أن توقـــف تدفق كميات كبيرة من السلاح والمساعدات الاقتصادية لها. ولـــو أنها من جهة أخرى تقدم معونات إلى الدول العربية المجاورة لإسرائيل حتى تقيم نوعاً من التوازن.

يقول عبد الغني:

– لـــن يكون العرب على استعداد لعقد سلام مع إسرائيل إلا إذا شـــعروا باحترامهم لأنفسهم وأحسوا بالقوة. وأمريكا لن تسمح لهم

بالتفوق على إسرائيل. إن مؤتمر الخرطوم قد قرر: لا اعتراف بإسرائيل لا مفاوضات ولا سلام.

يتدخل الدكتور عباس في الحديث قائلاً:

- نفس الصيغة التي ظهرت في ثورة ١٩١٩ حينما قرر الحزب الوطني ألا مفاوضة إلا بعد الجلاء. ولم يحدث جلاء واستمر الإنجليز يستعمرون البلد. حتى جاءت الثورة وبدأت في مفاوضتهم، رحلوا عن مصر باتفاقية الجلاء المعروفة.

- لا تنس أنهم رحلوا نتيجة صراع مرير اعتباراً من عام ١٨٨٢ عام احتلالهم للبلاد حتى عام ١٩٥٤، ولو أنهم عادوا ليذبحوا الشعب مرة أخرى في عدوان ١٩٥٦.

تدلي كرستينا برأيها فتقول:

- إن الوضع الآن في الشرق الأوسط ملتهب. ولن تجدوا من أمريكا أي عون. ذلك لأن جونسون لديه مشاعر حميمة لإسرائيل، وهو معجب بها. فضلاً عن أنه مرتاح للإسرائيليين الذين تعامل معهم، وأقرب المستشارين إليه معروفون بميولهم إلى إسرائيل، ولهم أصدقاء حميمون فيها، علاوة على أن لهم صلة وثيقة بيهود أمريكا.

أضاف الدكتور عباس يقول:

- أضيفا إلى ذلك أن جونسون يري تحجيم عبد الناصر وطموحاته الشخصية.

قال عبد الغني كأنما يريد أن يدلي بباعه في المسألة:

- بعد المعركة الجوية التي دارت رحاها بين سوريا وإسرائيل في إبريل ١٩٦٧، وأسفرت عن إسقاط ست طائرات ميج لسوريا. ابتدأت أمريكا تهتم بالشرق الأوسط وكانت متفرغة لحرب فيتنام.

وأمتد الحديث بينهم طويلاً، ثم نظر عباس إلى الساعة، وقال: ياه .. إن الوقت سرقنا.

وانصرف عباس وزوجه، وقد عانق أخاه بقوة، ولم يسأله أن يبلغ التحية لوداد زوجته حينما تعود من النادي، وإن أبلغه أن يقبل له أولاده نيابة عنه. فلا أهمية لهذه الفلاحة أن تتلقى منه سلاماً ..

ولما غادرا الشقة، توجه عبد الغني إلى حجرة مشيرة، وطرق الباب، ثم فتحه، وأطل في الحجرة، وهي تنظر إليه بإمعان. كان الظلام يملأ الحجرة، وقد تسلط الضوء على كتاب تقرأه مشيرة. وتقدم منها، وهو يسأل:

- هل انتهيت من المذاكرة؟

ثم ضمها إليه، وهي تجلس في مواجهة مكتبها المواجه للحائط، حاولت أن تبعده، وهي تقول:

- سوف تأتي وداد الآن والأولاد من النادي! ..

قال: لا أهمية عندي. سوف أعلنها مدوية أنك زوجي أمام الله ورسوله.

قالت مشيرة: أرجوك يا عبد الغني .. لا تتسرع.

كانت وداد قد تغيرت عواطفها نحو عبد الغني بعد زواجهما. لما عرفت أن بعض أفراد عائلته كان يعارض من زواجه منها خاصة الدكتور عباس لأنها بنت فلاح. فأصرت أن تترقى وتتجاوز وضع

هــذه العائلة، وبدأت تنهل من قشور الطبقة الأرستقراطية وتركت زوجهــا دون تلبية طلباته. كان أخوها صديقه في مدرسة الطيران وتخــرجا معاً. وزاره في بيته فوقع في غرام وداد وطلبها للزواج. لــم تمــانع عائلتها لأنه ابن لواء سابق وضابط مرموق في سلاح الطيران. واكتشفت وداد من ثرثرات نسوة العائلة وهن يضحكن أن عــباس تزعم رفض الزواج، لذلك امتنعت عن ود العائلة بأسرها. وتفــرغت لحياة النوادي، وفترت عاطفتها الملتهبة تجاه عبد الغني. ولــم تعد تعنيها وجاهته العسكرية أو تستلفت نظره. وصدته كثيراً عــندما كان يطالب بحياة زوجية صحية. ولم تطالب بالطلاق منه تحديــاً لعائلته التي كرهتها وحتى لا تفقد الحياة الرغد التي تعيشها ولا تعــود فلاحة كما يقولون. واصرت على التمسك بزواج هش، حتى لا يقال إن الفلاحة فشلت مع ابن اللواء.

اضــطر عــبد الغني أن يجري علاقات غير شرعية مع بعض النســاء والخادمات، هؤلاء اللاتي كانت تستقدمهن وداد من قريتها لخدمــتها وخدمة بيتها وأولادها. ثم بدأ عبد الغني ينتشل نفسه من هــذا المستنقع بعد ظهور مشيرة قادمة من الريف، وهي بنت خالة وداد. فــبدلاً من أن تقيم في المدينة الجامعية، وافقت وداد على أن تقيــم فــي بيتها حتى تكون قريبة من كليتها كلية الاقتصاد والعلوم السياســية. وأفقدهــا عــبد الغني عذريتها. وأضطر بعد مناقشات ومجــادلات بينهما طالت ثلاث سنوات، أن يتزوجها حينما تمنعت. وكانت قد بلغت الحادية والعشرين من العمر، واتصلت بعمها حتى يكون وليها في الزواج إذ أن أباها متوفى. واشترطت عليه ألا يبلغ وداد بهذا الزواج. وافق العم بعد لأي، وبارك زواجهما السري. وقد

استمرت تعيش في بيت عبد الغني حتى تنتهي من دراستها الجامعية. وكثيراً ما اختلى عبد الغني بها لأن النوادي سرقت وداد من بيتها أصبحت تجافيه. واصبح الجو مهيئاً وخالياً لمشيرة وعبد الغني. يعود متعباً ويجد واحة من الحنان تنتظره فيغرق في أحضانها، ويخبو التعب، وتحل النشوة بدلاً منه.

قالت مشيرة بخبث:

- متى انتهي من البكالوريوس؟ ..

- لم؟ .. أتريدين أن تتركيني؟..

- إن الأمر حتمي، وإلا انكشف أمرنا. ثم إن هناك أمراً آخر هو أنني تعبت فعلاً من اللولب، فهو يزيد من مدة الدورة الشهرية.

- هانت يا مشيرة .. في نهاية العام الدراسي سوف أعلن زواجنا رسمياً. ونعيش في شقة تجمعنا.

إن فضل مشيرة لا يمكن إنكاره، فقط أنقذته من أشواك الإثم. وقد غرق فيها لأم رأسه. كان تبرير الإثم يقلق راحته، وهو أنه ما يفعله إلا مضطراً بضغط من صد امرأته له، أما بعد أن تزوج مشيرة زواجاً شرعياً، فلم تعد الطعنات النفسية غير ذكرى تصيبه برعشة وتمضي. وتختفي الذكريات في خضم الأحداث ولو أنها تختفي إلى حين.

# الفصل العاشر

## دفتر الأوامر

مرة أخري يخوضون غمار معركة خاطفة، ويتم لهم عبور القناة تحـت وابل من نيران المدفعية، ويقتلون بعض الجنود، ويضعون ألغاماً مضادة للدبابات في الطرق الوعرة، ثم يعودون، وقد استشهد الـبعض مـنهم، ويجـد العـائدون شـهداء آخـرين في الخنادق والمعسـكرات. يـبكي بيومي من فراق الأصدقاء، هؤلاء الشهداء كـانوا يستمعون إليه، وألف الله بين قلوبهم، وجلس وهو يقول وقد وضع رأسه بين يديه:

- إن الخطـأ هـو خطـأ ذلك المتربع على العرش. فقد صدق وشاية السوفيت بوجود حشود إسرائيلية على وشك الانقضاض على حـدود سـوريا الجنوبية بعشرة لواءات، فما كان منه إلا أن طرد قوات الطوارئ الدولية وقفل مضايق تيران .. وسهل العدوان على إسرائيل.

يضيف مجاهد قائلاً:

- لا تـنس أنـه ألـب عـليه أمريكا نصيرة إسرائيل الأولى. جونسون يا عم متعاطف معها. ووزيره الماكر جون فوستر دلاس.

قال أحد الجنود:

- لو كان فضل حياً لسألك من هو جونسون هذا وجون ذاك.

قـــال مجاهد: الأول هو رئيس جمهورية أمريكا. والثاني وزير خارجيتها. أضف إلى ذلك أن أشكول هو رئيس إسرائيل. وأليكسي كوسيجن رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي.

هـــز الجندي رأسه، وأشاح بيده، وقال وهو يمضي: يريدان أن يوحيا إلينا أنهما مثقفان. هذه قشور ثقافية.

نـــاداه مجاهد وهو يسأل: تعال هنا .. من هو رئيس جمهورية بريطانيا لو أنك شاطر؟

توقـــف الجـــندي وأســـهم، وقـــال وقد أعقب قوله عاصفة من الضحك: يوثانت.

مســـح بيومي عينيه من فرط الدموع .. دموع الضحك والحزن اختلطـــتا، وشارك الجميع الضحك، والجندي يتجه إلى دورة المياه ليقضي حاجته، وهو يقول: عن إذنكما سوف أتبول على كلامكما.

***

لمـــا أشـــرق الصبح، كانت الأضواء تلون صفحة القناة بألوان الطيف. ويتماوج فيها الموج تموجاً خفيفاً. ورأى مجاهد السفن التي توقفـــت في عرض القناة وهجرها أصحابها لأنهم لم يستطيعوا أن يفلـــتوا بهـــا من الضربات، ولأن أحداً لم يرشدهم إلى الطريق إلى البحر الأحمر.

وجاء بيومي ووقف جانبه يتأمل مثله وهو يقول:

- نزلت ليلاً إلى المدينة، لم أجد صريخاً ابن يومين فيها. غادر الـــناس متردم، تم تهجير السكان. وجدت صعوبة في أن أجد بقالة مفـــتوحة. اهـــتديت لها في عمق المدينة .. اشتريت حلاوة وجبناً

ولنشـــاً لإفطارنا. بالكاد وجدت لديه ربع كيلو من كل صنف وعلبة لنشن.

وأتي عريف من قبل قائد الكتيبة يقول لمجاهد:

- ألست العسكري مجاهد عبد السميع حميده؟

- نعم .. أنا هو.

- تعال .. حزباشا يريد أن يراك.

- فيم يريدني؟ ..

- لا أدري .. لم تصل بي القوة إلى أن أعرف فيم يريدك؟ ..

ذهـــب بعد تردد .. كأنما في إمكانه أن يتردد في الجيش. كيف يخـــرق الأوامر في القوات المسلحة؟ .. لابد أن عبد الموجود جاء ثانيـــة. يريد أن يدعوني لرؤية أمي. أنا اشتاق إليها فعلاً هي البلسم الـــذي يشفي الجراح، ولكن لم أعد أطيق البيت، رغم أنه زالت عنه بصمات القسوة.

رفـــع يـــده بالتحية العسكرية أمام القائد. وسمع القائد، وهو يرد التحية ببساطة:

_ أنت مؤهلات يا مجاهد؟

- نعم .. ثانوية عامة.

" لا يجوز أن يعرف أنني بكالوريوس تجارة قسم إدارة أعمال، فأنـــا مقيـــد لديـــه ثانوية عامة". قال: سوف يُسند إليك كتابة دفتر الأوامر يا مجاهد، ذلك لأن العسكري القائم به سوف يقوم بإجازة.

- سمعاً وطاعة يا أفندم.

هل يجوز مناقشته؟ .. هل يمكن أن يقول له إن وضعي الحالي يريحني. هل يمكن أن يقول له إنه يكره الرئاسات والعمل فيها؟ .. يجـب أن أطيـع الأوامر. لقد دخلتَ بقدمي إلى الجحيم وعليّ أن أحترم تعليماته.

- أذهـب الآن إلى الـرقيب أول جودة .. وسوف يعلمك كيف تكتب في الدفتر.

- حاضر .. يا أفندم.

هـل عـبد الموجود أوصى بي؟ .. هل طلب منه أن يُسند إليّ عمـلاً بعيداً عن الميدان؟ .. عندما جاء المرة الأولى كانت معرفته بضـابط من الضباط عارضة، ويبدو أن الضابط لم يبد أي استعداد لرعايـتي؟. لـم يطلـبه مرة أخري ليتعرف عليه ويبحث طلباته. استشـهد ذلك الضابط في دورية من الدوريات المقاتلة عبر سيناء. وأبلى بلاء حسناً، لكنه عاد محمولاً على الأكتاف. رفض الجند أن يـتركوه في الأرض العراء، ووضعوه في القارب المطاط ممدداً، وعـادوا بـه، وسُلمت جثته إلى ذويه. ولو كان حياً لربما كان هو الـذي أوصى القائد به. أو ظن أنه أوصى به. ولا يعقل أن ملازم أول مـثل أخيـه عبد الموجود تكون له كلمة مسموعة عند القائد. أيكون أبوه باعتباره عقيداً سابقاً قد أوصى به عند هذا القائد. ولكن مظهر القائد لا ينبئ عن شيء. ربما الأمر كله صدفة، فلماذا أنقب وراء الأحداث وأسبابها؟ .. وهل يمكنك أن ترفض الأمر لو اتضح لك أن أباك أوصى بك. أخطر ما في الوضع أنني سوف ابتعد عن زملائي الأعزاء الأحباء.

# الفصل الحادي عشر

## المحرم

طلبت عالية أمها علوية من المملكة العربية السعودية في ساعة متأخرة من الليل وقالت:

- فــوزي .. ســوف يصـــل إلى القاهرة غداً، كوني معه لأنه سيشـــتري لنا شقة ويؤثثها. سيشتري الشقة بأسمي والأثاث باسمي. سوف يتصل بك عندما يصل إلى القاهرة.

عالية حصلت على ماجستير في الطب، وقد تخصصت في طب الأطفـــال. وسرعان ما سعى إليها مدير مستشفى بالرياض وطالبها بأن تكون من ضمن العاملين في المستشفى وسألها:

- هل أنت متزوجة؟ ..

قالت: لا ..

قال: لو تزوجت فأنا أضمن لك عقداً بمبلغ خمسة آلاف ريال شهرياً.

انبهرت الفتاة لهذه الثروة الطائلة. وسألت نفسها: هل أدلل على أن يتزوجني رجل؟ .. كانت تتمنى أن تكون زوجة لطبيب لكن أين تجد هـــذا الطبيب؟ .. ربما كانت رشاقتها وعيناها الخضراوان - ميراث جدهـــا اللواء من ناحية والدتها - وشهادتها قد تكون شفيعا لها، لكن الرجال في هذا الزمن أو على الأقل المحيطون بها يعرفون أنها فقيرة ولا تحـــتكم على مبلغ مدخر. وبعد حرب اليمن أصبح على الأسعار مـــن السهل أن تلتهب. وأحجم الرجال عن الزواج. وارتفعت أسعار الشقق. وكان أصحاب الشقق في البداية يطلبون خلواً وإيجاراً عالياً، فكانت الناس تدفع على أساس الطعن في الإيجار الحالي ثم تقوم لجان

الطعن بتخفيضه. ثم أصبح أصحاب العمارات يطلبون مقدماً وإيجاراً متوسطاً .. ولكن لم يكن هناك من هو قادر على الدفع فمن الذي يتوفر لديه المبلغ الكبير الذي يطالبون به؟ .. بل انقلب الوضع بعد ذلك من إيجار إلى تمليك، فقد أحجم الكثير عن بناء عمارة يؤجر شققها وفضل أن يبني من أجل التمليك. وصار الرجال يبحثون عن امرأة لها شقة. ولم يعد يوجد رجل يعرض الزواج ويبرز عقد إيجار أو تمليك شقة.

غازلها فوزي في الطريق، وهي تذهب إلى الكلية، وانتظرها وهي تؤوب إلى بيتها. عنفته في البداية. ولما لاحت لها الوظيفة الجديدة ردته برقة، ثم حادثته، ثم التقيا. وعرفت أنه حاصل على ليسانس الحقوق، ويعمل محامياً تحت التمرين، لكن لا يتقاضى مرتباً عالياً. ولما كان يملك اللغة السلسة الحلوة المعسولة فقد استطاع أن يتربع على قلبها. لا أهمية لطبيبة أن تتزوج طبيباً يمكنها أن تتزوج حقوقياً. تزوجته رغم معارضة أمها، وقالت لها:

- سوف أسافر إلى السعودية، وأعمل هناك طبيبة أطفال وأحتاج إلى محرم.

كان الدخول إلى السعودية بشق الأنفس، ذلك لأن الزعيم أفسد العلاقات بينها وبين مصر كان كالأطفال متخاصماً مع ملكها في ذلك الوقت. وكان يحاربها في اليمن. ولكن استطاع مدير المستشفى المغرم بالتعامل مع المصريين أن يحصل على تأشيرة دخول وإقامة وعمل ومرافقة زوجها لها محرماً.

لم يجد فوزي أي عمل في الرياض. وفكر أن يتردد على مكاتب المحامين، فعرض عليه المكتب الأول ألف ومائتين ريال، وعرض عليه المكتب الثاني ألف ريال، والمكتب الثالث أبدى استعداده لأن

يعمل مقابل ثماني مائة ريال، وعاد مهموماً إلى عالية. وعرض عليها مشكلته، فطلبت منه أن يعمل في المكتب الأول على أساس أن العمل وسيلة لقتل وقت الفراغ الكبير. إذ أنها كانت تعمل فترتين. فترة من الثامنة إلى الثانية عشرة. وفترة أخرى من الرابعة إلى التاسعة مساء. ولا يلتقيان إلا ظهراً ومساء، وتكون منهكة فلا تهتم به إلا في أيام الجمع. أما باقي الأيام فعادة ما تأكل وتنام سواء عند الظهيرة أو عند المساء وهو يبحث عن عمل. ولما ذهب فوزي إلى المكتب الأول وقبل الألف ومائتين ريال، أعتذر صاحب المكتب لأنه استخدم آخر بدلاً منه.

استقر في البيت غاضباً. وطلب منها أن تشتري سيارة ليقوم بتوصيل تلاميذ المدارس بها صباحاً وظهراً مقابل مبلغ معين عن كل تلميذ. ويكفي أن يكون معه خمس تلاميذ يدفع كل واحد منهم ثلاثة مائة ريال شهرياً، فيكسب ألف وخمسمائة ريال في الشهر.

فكرت .. وقررت أن تجاريه حتى لا يطالبها بالعودة إلى مصر فتخسر وظيفتها والمرتب الشهري المرموق في ذلك الزمان. واشترت له السيارة، وعرفته بأبناء وبنات بعض الأطباء الذين يذهبون إلى المدرسة ولا يمكن لآبائهم توصيلهم. وصار يوصلهم إلى مدارسهم صباحاً ويعيدهم عند الظهر إلى بيوتهم.

اكتشفت يوماً أنه يعمل في مكتب محام من وراء ظهرها. فقد جاء أحد المحامين يوماً إلى المستشفي ومعه طفله الصغير مصاب بالحمى. وأشرفت على علاجه إشرافاً كاملاً، حتى زالت عنه السخونة، وبرأ من الحمى، وقد قدرها المحامي وطلب منها أن تتفضل مشكورة إلى داره لتحضر هي وزوجها حفلة شفاء الطفل.

ولما سألها عن اسم زوجها حتى يوجه إليه الدعوة، أخبرته، ففوجئ المحامي، وقال: إن فوزي يعمل عندي.
وقالت: معقول !! ..

ولمـــا واجهته، أخبرها أنه كان يعد لها مفاجأة حينما يقبض أول راتب له. إذ ينوي أن يشتري هدية ثمينة لها تقديراً لوقوفها بجانبه. تصنعت التصديق ومررت الموقف دون شجار.

ولما لم تحمل خلال سنة كاملة من الزواج، عرضت نفسها على أحد الأطباء في أمراض النساء في المستشفى، فأكتشف الطبيب أنها تعـــاني من ضعف في جدار الرحم، مما يحول دون الحمل. وكتب لها عديداً من الأدوية صارت تتناولها سراً في المستشفى بعيداً عن عيـــني زوجها. وأصيبت باكتئاب، وزحف إلى قلبها البؤس واليأس لمـــا طـــال العلاج، وأقاما في قلبها دهراً. وصارت تعامل زوجها بحنان متدفق أكثر من اللازم، وتغفر له كل أكاذيبه، وقد عرفت أن لديه غراماً بالكذب، ولبت كل طلباته خشية أن يستنكر أنها لم تحمل حتى ذلك الوقت، ويتهمها بالعقم، وينفر منها. وعندما عرض عليها أن يشـــتريا شقة في القاهرة، وافقت بشرط أن تكون ملكاً لها لأنها سوف تدفع كل الثمن. لم يمانع. وطلب منها إبرام عقد وكالة لشراء شـــقة باسمها. وذهبا معاً إلى القنصلية المصرية وأبرما العقد أمام الموثـــق وصـــدق عليه. وترك الرياض على أمل أن يشتري الشقة ويعـــود. وطلبت منه أن ترافقه أمها عند معاينة الشقة وعند اختيار الأثـــاث، فقال: أرى أن حماتي ذوقها رفيع مثل ذوقك فلا بأس أن ترشدني إلى الشقة المناسبة والأثاث الجميل.

ســـافر وقد دست في جيبه كل الأموال التي ادخرتها منذ وطأت قدمها الرياض.

وطلبت أمها بعد يومين وسألتها:

- ألم يتصل بك فوزي؟

قالت: لا .. لم يتصل.

- كيف؟ ..

- لا أعلم .. أتعرفين عنوانه في القاهرة أو حتى رقم هاتف أتصل به عليه.

فزعت وهي تقول: لا ..

تزوجته وقد أخبرها أنه مقطوع من شجرة، وفرحت لأنه لن يكون لها حمو أو حماة. ولم تفكر يوماً أن تزوره في مسكنه. تزوجته ورحلا معاً. وخرجت من حجرة الهاتف والشك يعصف بها. ولما دخلت منزلها ساورها القلق. وقالت: لم لا يكون نصاباً؟ .. وطاردها الفزع، ودفعها الشك إلى البحث عن ذهبها ومجوهراتها. كان عملها كطبيبة يمنعها من ارتداء الحلي، لكنها كانت تقتنيه. عادة تعلمتها من أمها، ولم تتمكن من الإقلاع عنها، وسيطرت عليها لدرجة أنها كانت في كل شهر تشتري جنيهاً ذهبياً. فتشت دولابها فلم تجد شيئاً. أتكون قد وضعت الذهب والمجوهرات في مكان آخر ونست أين وضعتها، قلبت البيت رأساً على عقب ولم تعثر على شيء. سرقها الثعبان الملعون.

وبعد أيام طلبت أمها لتعرف ما آل إليه الوضع فقالت لها:

- الكلب لم يكتف بسرقة نقودك .. إنما أرسل إليك ورقة الطلاق. خسرت نقودها. خسرت وظيفتها. اضطرت أن تعود إلى القاهرة لأنها فقدت محرمها. عادت إلى القاهرة تبحث عن وظيفة لها. استقبلتها أمها حزينة على حظها، وأخذتها في أحضانها، وبكتا معاً.

# الفصل الثاني عشر

## نصاب بلا عنوان

سأل الضابط:

- هل لديك أوراق تثبت أنه استلم منك سبعين ألف جنيه؟

قالت باستغراب:

- هل هذا معقول يا سيادة الضابط؟ .. لا تنس أنه كان زوجي؟ ..

سأل الضابط: ولم أخذ النقود؟

- كان سيشتري لي شقة باسمي، وأبرمت له توكيلاً بذلك وأخذ معه النقود من الرياض .. غير ما اكتشفته بعد ذلك من سرقة ذهبي ومجوهراتي ويقدر ثمنها بحوالي اثنا عشر جنيها.

يسأل الضابط: هل معك صورة من التوكيل؟

- لم يكن لدي عدم ثقة به حتى أصور التوكيل. ويمكن أن تستعلموا من القنصلية المصرية بالرياض.

يتدخل الدكتور عباس قائلاً:

- كل ما نريده هو القبض عليه لأنه نصب عليها.

يقول الضابط: هل لديكم عنوانه يا دكتور؟

- أعتقد انه موجود بوثيقة الزواج. ويمكن أن نحصل عليه من البطاقة العائلية الخاصة به.

- ألم تذهبوا إلى هذا العنوان للتأكد من وجوده. ربما يكون هناك مرض ألم به عاقه عن تسليم النقود إلى صاحبتها أو شراء الشقة. أو لعله اشترى الشقة ومنعه المرض من الاتصال بها.

- ومنعه أيضاً المرض من أن ينهض ويحرر وثيقة بالطلاق؟

كـــان الضـــابط يعـــامل الدكتور عباس معاملة خاصة، يكتنفها احـــترام. فقـــد أبلغه لواء بدرجة نائب وزير الداخلية أن يقوم بعمل اللازم. لكن الضابط لم يستطع أن يمارس الاحترام أكثر من اللازم فقـــد كـــان من طبعه السخرية من أصحاب الشكاوى. ويدعي بينه وبين نفسه أنها جزء من التحقيق.

ووعد الضابط بالبحث عن الزوج أو المطلق الهارب من العدالة وتوجيـــه تهمة النصب إليه وسوف يتفقده في العنوان المبين بوثيقة الزواج.

وعـــاد الدكتور عباس ومعه عالية إلى الدار. وكان هناك الجمع الكـــبير. العائلة الكبيرة. عبد الغني دون زوجه. وعبد السميع ومعه زوجه رئيفة. وصفية وأميمة دون زوجيهما وكانت كرستينا تنتظر قدوم بعلها بين هذا الجمع. جاءوا جميعهم للترحيب بعودة عالية من الســـفر، وفوجئوا هناك بأن طلاقها قد تم، وأن زوجها نصب عليها فـــي ســـبعين ألف جنيه، واستولى على ذهبها ومجوهراتها، وترك الرياض .. وفر منها وفي مصر طلقها.

قال عبد الغني: اعتقد أن العنوان الموجود في بطاقته أو في عقد الزواج عنوان وهمي. أو ربما كان يسكن فيه قبل الزواج وتركه.

قـــال عبد السميع موجهاً كلامه إلى علوية: كيف تزوجين ابنتك لرجل لا تعرفين عنه شيئاً. ولا تعرفين عائلته.

قالت علوية، وهي تجفف دموعها ومخاط أنفها بمنديل ورقي:

- لقد دخل علينا بالحنجل والمنجل. وكانت مضطرة أن تتزوجه لتسافر إلى السعودية.

يــدق عــبد الســميع عــلى فخذه ويقول: هل هذا كلام؟ .. ثم يســتطرد: كان يجب عليك أن تبلغيني أو تبلغي عبد الغني أو حتى زوج صفية أو زوج أميمة ليتقصوا لك عن أصله وفصله.

قالت عالية معترضة: أنا الحق عليّ أنا الذي استعجلتها في هذه الزيجة. وقد مضي عليّ أكثر من سنة متزوجة، لم أشهد منه إلا كل خير. لقد ذهب معي محرماً، ولكنه اشتغل هناك. اشتغل في عملين. وكــان يصرف على البيت ولا يقبل مني أي نقود. كيف أتوقع منه أن يكون نصاباً.

ويقــول الدكتور عباس مقاطعاً: تلك هي طريقة النصابين. لعله صــرف مــثلاً ألف ريال في الشهر، حتى يلتهم سبعين ألف غير الذهب والمجوهرات.

أطرقت وهي تقول: نعم .. هذا ما حدث.

تــركوا الدار بعد قليل ليعود كل واحد منهم إلى بيته. وقد ركب عبد الغني سيارته ومعه أختاه. وقال لهما: فيات وليست بويك. قالت أخــته أميمــة: نعمة. وقال عبد السميع: خذنا في طريقك يا دكتور عــباس. قــال عباس: وهو كذلك يا سيادة العقيد. هز رأسه أسفاً: عقيد. كان ذلك في زمن مضى. همس في أذنه وهو يركب بجانبه:

هناك محاولات تجرى لإعادة كل من سبق إحالته إلى الاستيداع.

نظره باستغراب وسأله: أحقاً ما تقول؟ ..

ربــت عــلى كتفه وهو يحرك السيارة بعد ن اطمأن أن رئيفة وكرستينا ركبتا وقفلا باب السيارة.

قال باللغة العربية: أهوه عملها سي جونسون ورقد على تلها.

قــالت كرســينا: ثق أنني أعرف الآن اللغة العربية. ثم أضافت بالإنجــليزية: جونسون طلب من إسرائيل ضبط النفس. وطلب من ناصر أيضاً.

قال عبد السميع ضاحكاً وبلغة إنجليزية مضطربة:

ـ إنها تمثيلية .. يا مسز كرستينا. ثم أردف: تريدين أن تحملي ناصر المسئولية. ومن لا يحمله. هو نفسه يوم خطاب التنحي حمل نفســه المســئولية. فماذا كان العقاب. ماذا فعلنا: لا شيء. هتفنا لا تتنح.

ضحك الدكتور عباس وهو يقول:

- حــتى تستريحا أنتما الاثنان. هناك نظرية تقول إن الولايات المــتحدة الأمــريكية تواطــأت مع إسرائيل أثناء الأزمة راغبة في إضعاف نظام ناصر أو الإطاحة به. وهناك نظرية أخرى تقول إن جونسون لم يكن بينه وبين إسرائيل تواطؤ أعترض جونسون على قــرار إسرائيل دخول الحرب. وسلم بما صار بعد ذلك ووافق على أن إســرائيل يمكــن أن تــلجأ إلى القوة لحل مشكلتها دون تدخل أمريكا.

كــان الحديث يدور بينهم، ورأس رئيفة قد مالت. وأغفت قليلاً والسيارة تنهب الأرض من العجوزة إلى مصر الجديدة. ولم تسمع شيئاً مما يقولون. وإذا سمعت لم تكن لتفهمه.

# الفصل الثالث عشر

## محاضرة في الحرب والحب

ســألت أميمــة وعبد الغني يزورها في منزلها هو وأختها صفية بعد نزلة برد شديدة ألمت بها:

- لم لم تأت زوجك معك هي والأولاد؟

قال عبد الغني ساخراً:

- يــوم أن عرفت أن العائلة المقدسة تسخر منها وقالت عنها إنها فلاحــة من كفر البلاص. هكذا قال أخوك الدكتور المهذب عباس، قبل أن يحصــل على الدكتوراه بالطبع. رفضت من يومها العائلة. بل يبدو أنها رفضتني أنا الآخر. تجلس يومها كله في النادي - نادي الضباط. هــي وأولادها. بعد عودة الأولاد من المدارس. لها معارف كثيرة من نســاء الضباط أنا لا اعرفهن. ولا تدخل البيت إلا مع دنو الساعة من الحاديــة عشــرة. هي وأولادها. تصوروا أنها تجعلهم يستذكرون في النادي. كأنه أصبح نوعاً من الإدمان. جعلت البيت فندقاً.

- وأنت ماذا تفعل؟

- أعــود عــادة الساعة الخامسة مساء. تقوم مشيرة بنت خالتها بتحضــير السفرة لي. أكثر الله لها الخير. مشغول فعلاً في المطار. ولولا هذا الانشغال لكان لي معها عتاب كبير.

- أتعدون العدة لحرب يا عبد الغني؟

قال: طبعاً .. لا شك في ذلك.

سـألت صـفية باستغراب: كيف تعدون العدة لحرب جديدة وقد ضُربت كل طائراتكم. لقد قرأت أن إسرائيل أتبعت معكم نفس خطة حرب ١٩٥٦؟ ..

– نعم .. هي نفس الخطة. حين كانت القيادة تغط في نوم عميق. طائـراتهم تحولـت إلى صقور .. انقضت على طائراتنا وهي ترقد كالحمائم والتهمتها. لكن الوضع تغير الآن. لقد حصلنا على طائرات جديـدة مـن الاتحاد السوفيتي ميج ٢١ بدلاً من الميج ١٧ و١٩ .. الـتي فقدناها في الحرب. وحصلنا على دبابات ت ٥٤ وت ٥٥ بدلاً مـن دبابات ت ٣٤. علاوة على الصواريخ، صواريخ سام المضادة للطائرات. نحن نجهز أنفسنا تماماً للحرب.

– وماذا ستفعل أنت يا عبد الغني؟

– مـاذا سأفعل؟ .. لقد علمنا أبونا اللواء أن نهب أنفسنا للوطن. وهـا أنـت تـرين أنـا في الطيران. وعبد السميع كان في الجيش. وعـباس كـان أيضاً في الجيش ولو أنه تركه مبكراً. ومنصور في البحرية .. كلنا مجندون لخدمة البلد.

تقـول صـفية: يا فرحتي يا أخي بكم .. وآه عندما يصاب واحد منكم ..

قاطعهـا قـائلاً: الموت والحياة أمران لا يد للإنسان فيهما. هاهو عـبد السـميع. سيادة العقيد دخل حرب ١٩٦٧ الذي لم ينج منها إلا القليل ونجا هو مع هذا القليل.

ثـم سأل عبد الغني: أين زوجا كل واحدة منكما؟ .. لم أرهما من مدة حتى وأنا داخل بيت أحدكما.

قـالت أميمـة: زوجي ليس لديه وقت .. يعد للدكتوراه .. يجلس بعد الظهر حتى الليل في المكتبات.

قالت صفية: أنت تعرف زوجي .. مثل زوجتك لا يبلغ أحداً من العائـلة. يقـول أنـا من الأخوان وهم من العسكر. وهناك ثأر بين الأخوان والعسكر.

- أخاف على زوجك.

- لا تخـف. إنه لا يربي ذقنه .. ويعاكس النساء ويضحك كثيراً .. حتى أن من يشاهده يقول عنه إنه لاه .. ويخفي أنه من الأخوان.

قالت أميمة: أتعرفين؟ ... سيقولون عنه إنه شيوعي! ..

***

سألته وداد، حينما دخل عليها، ورآها تجلس في نور خافت كأنها تتستر بالإضاءة الخافتة:

- أين كنت؟ ..

قال بغضب:

- وهل أسألك أنا أين كنت؟ ..

قالت باستهزاء:

- أنـت تعرف .. إنني لا أبرح النادي ومعي الأولاد. أحاول أن أطـور مـن فلاحة كفر البلاص. أحاول أن ألعب التنس حتى أبدو رشيقة. أتصل بالنسوة صاحبات المودة الجديدة .. أحاول .. وأحاول .. حتى أعجب وأكون جديرة بالعائلة المقدسة.

- إلى متى ستحاولين وتحاولين؟

- أنت لا تشعر بي .. إنك حتى لم تمسسني منذ شهر.

- لأنــي أعــود ولا أجـدك. ومضطر أن أنام مبكراً حتى أكون في الكتيبة مبكراً .. نحن في حالة حرب يا هانم .. إما الحرب وإما الحب ..

- حرب .. حب .. أنا فقط أقول لك إنك لا تحاول أن تتكلم معي.

- أنت التي بدأت المقاطعة. ولضح أنك لا تطيقين العيش معي.

- وأنــت لا تطيــق أيضــاً العيش معي .. أذهب وتزوج امرأة أخرى .. واتركني أنا وأولادي نعيش.

- إنــك حــتى سرقت مني أولادي .. سرقت حياتي. لقد أصبح النادي بيتك. وأنا هنا ولا حاجة.

- أبحث لك عن أخرى ..

- ســأبحث .. ولن أهدأ حتى أجدها. ولكن وقت الحرب لا أجد فرصة للبحث.

- حــرب إيه .. يا أبا حرب. إنكم حتى لن تتمكنوا من استرداد شبر واحد مما فقدتموه. أنتم تكذبون الكذبة وتصدقونها.

- على العموم .. أنا أريد أن أنام.

جاءت مشيرة وهي تتساءل:

- لم تتطاحنان؟

قال عبد الغني: وهو ينفذ إلى الحجرة:

لا شيء .. لا شيء.

ثم سألتها مشيرة:

- ما هناك يا أبلة وداد؟ ..

- أبــدأ .. كــنت أسأله فقط أين كان، وبدأ يعطيني محاضرة في الحرب والحب.

# الفصل الرابع عشر
## الوضع هادئ على الجبهة

يقول بيومي مزمجراً:

- بنوا خط بارليف، فليبنوه .. إنهم لا يعرفون أننا كدود الأرض .. يمكــن فــي ليــلة ليــلاء .. ليس فيها قمر في السماء. ننبثق من الأرض كالعــنقاء. وننقض عليهم صقوراً من الفضاء. ونجعلهم في حيص بيص كأنهم عادوا من جديد إلى الشتات والظلماء.

تدخل جندي يقلد الجندي الشهيد فضل:

- وما هو الشتات يا عريف بيومي؟ ..

- هو الدايسبورا؟ ..

- وما هي الدا .. هذا يا بيومي؟

- هو الشتات.

- الله يلعنك يا من في بالي!! ..

ثــم يقــول بيومــي: أنــا لا أعلم كيف تركت القيادة هذا الخط لينشأ؟!..

جاء مجاهد يمشي الهوينى، ويرد على سؤاله:

- لأن إســرائيل انتهزت فرصة وقف النشاط المدفعي وبدأت في بناء الخط يا سيد بيومي. تريد أن تجعله أضخم عمل هندسي ...

يقاطعه بيومي:

- كان خط ماجينو يظن المحور أنه خط لا يمكن قهره أيضاً.

راح جعفر يقلد زميله الشهيد:

- من ماجنو هذا؟

ضرب بيومي رأسه وقال:

- أقرأ .. ولا تضيع وقتك في السؤال.

- ومتى أقرأ .. أنا هنا أقف وضع الاستعداد.

قال بيومي: ألم تر كيف قرأ مجاهد كتبه واستذكرها ونجح الفتى.

- كان الوضع هادئاً على الجبهة.

- وهاهو الوضع هادئ على الجبهة. وخط بارليف أمامك. وتحته مراقبة مباشرة أثناء النهار ومراقبة إلكترونية أثناء الليل في جميع المواقع على طول القناة. ومن المعروف أن هناك دوريات مدرعة وراءه. ومدفعية جاهزة لسترها. وتمركز تجمعات القوات المدرعة في العمق. ويمكنها صد أي هجوم عبر القناة. فأهنأ يا فتي بهدوء واسترخاء. وأقرأ ..

أضاف مجاهد: هناك كميات كبيرة من النفط يمكن فتحها فوق مياه القناة ويتم حرقها آلياً بحيث تغطي القناة بستار من اللهب يمنع اجتيازها من قبل قواتنا .. ستتحول المياه إلى جهنم.

قال جعفر: جهنم تأخذهم بإذن الله.

غير أن بيومي قال: لكن ذلك لن يشل إرادتنا .. وسوف نطيح بهم من سيناء وغزة والضفة الغربية والجولان .. بإذن الله.

تدخل مجاهد قائلاً:

- والآن وقد دخل العشاء فلنصل صلاة لله تعالى نطالبه فيها أن يشد أزرنا وينصرنا على القوم الكافرين.

وبعد أن انتهوا من تلك الصلاة وصلاة العشاء وفرغ كل واحد منهم من نافلته، قال بيومي:

- ساعة لربك .. وساعة لقلبك. وقد حانت الآن ساعة القلب. هل شاهدتم المجندة الإسرائيلية تلك التي كانت تستحم عنوة في مياه القناة عارية .. الكلبة جننتني. كنت أريد أن أقفز مرة أخرى في القناة وأذهب إليها. وبعد أن أنتهي من وطري منها أقتلها وأعود.

سأله جعفر: وهل قفزت قبل ذلك في القناة.

قال: يوم حوصرت في سيناء .. ألم تسمع قصة البدوية وسباحتي من رأس سدر إلى الضفة الغربية؟ ..

قال الفتى: لا ..

قال: اسمع ..

قاطعه مجاهد متدخلاً: أرجوك .. كفى.

***

جلس مجاهد على الرمل في مواجهة القناة. كانت صفحة الماء هادئة كعادتها. مياه بلا أمواج. حياتهم الآن أصبحت مياه بلا أمواج. بحر بلا تيارات. هادئ غير عنيف. مال عليه بيومي وسأل:

- هل تم تشغيلك؟

- نعم .. في الزيارة الأخيرة. جاء أخي عبد الموجود وأخبرني أنني عُينت في وزارة المالية. ولا أعرف ماذا سيفعل صاحب بكالوريوس إدارة أعمال في هذه الوزارة. ربما لم ينظروا إلى

التخصــص. أو هي عملية سد خانة. وإلا كانوا أرسلوا بكالوريوس تجـارة قسم محاسبة بدلاً مني. ولعلهم أرسلوا وما أنا إلا كمالة عدد. المهــم أن الإنسان قد يُسرح من الجيش ويخرج ولا يجد عملاً فهاهو العمــل قــد تــم تأمينه. أحب أن أقول لك إن عبد الموجود قد تمت ترقيته إلى رتبة ملازم أول منذ زمن.

- هــذا هو الزمن يا صديقي .. يمضي ببطء ولكن تتم فيه أشياء كـثيرة. وقد يجري بسرعة ولا يتم فيه شيء. أنا أعلم وضعك تريد أن تــترك هــذا المكان بفروغ صبر .. وفي نفس الوقت لا تريد أن تــتركه. تلك هي حالتي أنا الآخر. لا أريد أن اتركه حتى لا أتوقف عــن الجهــاد في سبيل بلدي. وأريد أن اخرج من هذا المأزق حتى أمارس حياتي. وأجدد نشاطي وأشعر بالدنيا.

# الفصل الخامس عشر

## نقطة ضعف المستبدة

كاميليا كانت تقف في حجرة الاستقبال في الفندق، لترد على العملاء. كانت تفكر في هدفها الذي هوى. يوم تعرفت بلطفي لم تشعر إلا بوخز في قلبها. وأدركت أن إبرة الحب قد رشقت في الفؤاد. ولكن لطفي – زميلها في العمل – على باب الله مثلها. ولا يمكنه أن يدخر مقدم شقة ولا خلوها. إنه مطحون مثلها. ربما كان معاش والدها كبيراً، واستطاعت أمها أن تشق طريق الحياة وسط الصعاب حتى علمت أختها وعلمتها وخطفت أختها بواسطة ذلك الكويتي قبل أن تنتهي من دراستها، غير أن ما هون عليهن مشقة الطريق هو تلك الشقة الواسعة التي تركها أبوهن، لكن لطفي يسكن في شقة عائلته الضيقة مع والديه وجمع من أخوته، ولن يتمكنا مثلاً أن يسكنا معهم. ولكن هناك شقة أمها – وهي شقة لها ولأختيها أيضاً – فهل تصارح أمها بهذا الشاب الذي تهواه وتريد أن تسكن معه في شقتها. ماذا سيكون رد أمها؟ .. إنها تعرف الرد مقدماً فهي لن توافق.

وفعلاً هذا ما حدث. انتفضت الأم مثلما تنتفض علوية جميل في الأفلام المصرية القديمة. ورفضت بإباء وشمم. ولم تحاول كاميليا أن تذكرها أن ليس لها في الشقة غير الثمن وهي وأختاها لهن سبع أثمان الشقة. لكن غضت الطرف عنها. ولم تعد تفاتحها في مسألة الشقة. ولم تعد تحب لطفي. كفت عن مطارحته الغرام، حتى لا تسقط في بحره إلى العمق، ولا تتمكن أن تتنفس بعد ذلك. وتحمل فوقها من الماء المالح أثقالاً تنوء بها. وسألها لطفي:

- ماذا حدث بيننا جعلك تعرضين عني؟

- لا أريد أن أحب؟

- وما السبب؟

- لأن الحب الذي لا يقود إلى الزواج لا أعترف به، والحب الذي يؤدي إليه نفتقده. لا شقة عندك. ولا مبلغ مدخراً نشتري به أثاثاً ولو حتى حجرة نوم، فلم أشغل بالي بالحب؟ ..

لم يحاول لطفي أن يلمح إلى شقة والدتها. وإنما قال بيأس:

- إذاً ضاع الأمل .. وانخسف الهدف! ..

- نعم .. أنمحق الهدف. كل إنسان له هدف في الحياة ولم يكن هدفي إلا حياة سعيدة وأسرة متألقة. لكن خسرت الهدف في أول الطريق .. ربما بعد عشرين سنة أستطيع أن أحققه.

- عشرون سنة .. هل جننت؟ ..

- نعم .. سيكون في إمكاني أن أدخر في هذه الفترة. وأتزوج وأنا على أعتاب الخمسين

- ومن ذلك الذي سيتزوجك؟ ..

- سوف يتزوجني شيخ في الستين .. أرمل أو مطلق .. يرغب في عش هادئ. وحينئذ أتمتع.

قال لطفي ساخراً:

- يا أختي عليها.

***

كتمت كاميليا ألمها في قلبها. ولم تُفاتح أمها مرة أخرى. إنها امرأة مستبدة. وحينما يسقط إنسان تحت رحمة مستبد فلا عليه إلا

الصبر. ولن تتمكن أن تفلت من استبدادها. فليس من السهل أن تترك المنزل وتتزوج لطفي وتجلب العار لأسرتها. إن أزمة المساكن قد اشتدت خاصة بعد أن تحول الأسمنت إلى الجيش وبناء القواعد العسكرية وقواعد الصواريخ.

في تلك الأثناء تعينت زميلة أرستقراطية في الفندق، ورفضت في البداية أن تعمل في الاستقبال، وخضع مدير الفندق وتنازل عن إصراره وعملت في الحسابات. رضخ لطلبها لما عرف أن أباها من كبار المقاولين المرموقين. وكانت تأتي كل يوم بسيارتها الفارهة متأخرة، فكان يتجاوز عن تأخيراتها. وفكرت كاميليا أن تتقرب منها عسى أن تجد لديها شقة تعيش فيها هي ولطفي وتقوم بتقسيط ثمنها بأقساط مريحة، فصاحبتها، ولما دعتها لزيارتها في بيتها لم تتردد.

خرجت كاميليا لزيارة زميلتها. بينما عالية في نوبتها في أحد المستشفيات التي عملت بها بعد عودتها من السعودية. ولما اطمأنت علوية إلى أن ابنتها غادرت الشقة لزيارة زميلتها. لم تسألها أين تسكن؟ .. أعدت نفسها لمقابلة مقاولها الثري في شقته بالزمالك .. تلك التي أعدها لتكون عش الزوجية والغرام. وما عليها إلا أن تعبر جسر الزمالك حتى تكون بالقرب من شارع الحب. لا شك أن ما تعيشينه يا علوية هو الحب. وإلا فما معنى زيادة دقات القلب والغوص في بحر السعادة دون أن تحملي معك أنابيب أكسجين للتنفس .. الحب هو بديل الأنابيب. وما معني .. وما معنى .. لا يا فتاة أو يا عجوز .. هذه مراهقة متقدمة. ألم تري فيلم المراهق الكبير .. أنت المراهقة الكبيرة؟!..

طالت الجلسة عند الزميلة الأرستقراطية. قدمت لها ما لذ وطاب من المشروبات والحلويات والشاي والقهوة. وكانت أمها مسلية جلست معهما تحكي حكاية. وتخرج منها إلى أخرى كأنها مستودع من الحكايات. هل خيالها ينسجها أم أنها وقائع مرت بها أو سمعتها من آخرين؟ ..

انتظرت كاميليا المصعد أن يصعد. ثم قررت ألا تنتظر. يبدو أنه في الدور الثامن مفتوح الباب. ولم تجد بأساً أن تنزل على درجات السلم من الدور الرابع إلى الدور السفلي. ووافقتها زميلتها الأرستقراطية وانصرفت إلى داخل شقتها. وبدأت كاميليا تنزل في رقة الغزال. وكعبا قدميها خفيفان لا يدقان على الأرض. ولما استقر وضعها في الدور الثاني، كانت إحدى الشقق يُفتح بابها، وتخرج منها أمها بلحمها وشحمها - علوية هانم حميدة - ورجل يودعها وهو يقبلها قبلة عميقة كأنها قبلة وداع. صرخت، فالتفتت، فإذا بها تجد ابنتها في مواجهتها. غير أن كاميليا تجاهلتها، وأسرعت في النزول، والمرأة قد تاه منها الطريق، وكادت تسقط لولا أنها استندت على مسند السلم.

لم تنتظرها كاميليا في أول العمارة، بل فتحت سيارة أجرة كانت واقفة، وقالت له: العجوزة يا أسطى.

خرجت علوية تبحث عن ابنتها، وقد ملأ الدمع عينيها، فلم تجدها. لا بد أن تقر بالحقيقة أمامها. إنها لا يمكن أن تعيش راهبة عمرها كله. وهي متزوجة من هذا الرجل المقاول الثري بعقد عرفي ويشهد على زواجها شاهدان عدل، ومن ثم فهي لم تخالف الشريعة. ولم تقم بتوثيق العقد لدى المأذون، حتى لا يضيع عليها معاش أبيها الذي تشاركها فيه ولا معاش والدها اللواء.

لما رمتها بالحقيقة سألتها كاميليا:

- ولم لا يتزوجك علناً ويعوضك عن هذين المعاشين. كم تتقاضين مائتين جنيه. مائتان جنيه في سنة بألفين وأربعمائة جنيه. وفي عشر سنوات أربعة وعشرين ألف جنيه. وأنت تقولين أنه مقاول ثري ...

قاطعتها علوية قائلة، وهي تطأطئ رأسها:

- لم أفكر في ذلك.

سألت كاميليا: وهل ذلك المقاول الثري متزوج؟

- نعم .. متزوج وله أولاد.

هزت رأسها وقالت:

- أنا قلت ذلك فعلاً .. الآن .. إنه يريد زواجه في السر حتى لا تكشف أسرته الحقيقة .. لا زوجه ولا أولاده يعرفون. وحينما يشبع منك يلقيك خارج حياته .. ولا حقوق لك عليه .. ولو مات لن تحصلي على أبيض أو أسود. أنت صفقة رابحة .. لا يغرم فيها شيئاً. تأكلين وتسكنين على حسابك. قد يشترى لك أكلة كباب أو أكلة سمك ويقضي حاجته ويمضي .. وقد يهبك هدية مرة في السنة بمناسبة عيد ميلادك.

قالت علوية بخجل: لاحظي أنني لا يمكنني أن أعيش راهبة.

قالت كاميليا: لم أقل شيئاً في ذلك. من حقك أن تتزوجي، لكن ليس في السر. علناً وعلى رؤوس الأشهاد. وإلا فما معنى ذلك إلا الاستغلال. لا ترضيه لنفسك. لا حقوق لك عليه. إنما هي واجبات عليك أنت فقط. كان يكفي أن يعطيك عشرين ألف جنيه ويقول لك مهرك يا علوية .. لكنه لم يفعل.

نظرت إليها بغيظ لأنها تنطق اسمها مجرداً، ولم ترد شعرت أنها محصورة في نقطة ضعف، لا تتمكن من الهروب منها، ثم سألتها كاميليا كأنها وكيل للنائب العام يحقق مع متهم:

- وماذا دفع لك من مهر؟

قالت: هل في الزواج العرفي مهر وشبكة؟ ..

قالت كاميليا: إذاً لم يكن قد دفع لك مهراً، ولم ينص عليه في العقد، وتبين أنك لم تتسلمه فهو زواج باطل .. يا أمي.

- لا أدري .. ربما كتب مبلغاً في العقد العرفي .. أنا وقعت فقط وأعطاني نسخة.

هزت كاميليا رأسها وتركتها في شجونها، وذهبت إلى حجرتها. هذه هي نقطة ضعف المستبدة، ولا بد أن تضغط عليها، حتى تنال مرادها وتتزوج لطفي، ويقيما معها في شقة أبيها.

دخلت عليها حجرتها متلاطفة، وهي تقول:

- لا داعي لأن تعرف عالية بشيء.

قالت كاميليا: وهل مثل هذه الأشياء تقال يا علوية هانم؟

زاد تلطفها بقولها:

- ألا يزال سي لطفي يريد الزواج منك؟

قالت غاضبة: لا .. صرف النظر.

قالت برقة: قولي له إن لا مانع لدي أن تتزوجا وتعيشا معنا ولنؤثثا حجرة لكما معاً. وتدخلا فيها.

تغير وجه كاميليا من وجه مربد بالحزن إلى وجه يفيض سعادة وقالت: أحقاً يا أمي. ثم قالت لنفسها: إنها ترشوني حتى لا أتكلم.

# الفصل السادس عشر

## أنــس .. أنــس ..

حقاً الطنين على الأذن أمر من السحر. المرأة تريد أن تعود إلى أمريكا. والدكتور عباس يحاول أن يتناسى، لكنها تلح .. وتلح .. والدكتور عباس يكتب عشرات الطلبات إلى جامعات أمريكا .. واشنطن. جنوب كاليفورنيا. الجامعة الأمريكية. لوس انجلوس. فلوريدا. ولم يقترب من نيويورك لأنها لا تريدها. وينتظر أن ترد عليه واحدة لكن لا رد هناك. ويبدو وسط الأصدقاء والأقارب كأنه لن يفارق مصر أبداً. ولا يفكر حتى في رحلة إلى الخارج. استمر يزور أصدقاءه دون أن يعلن أنه ينوي السفر إلى أمريكا والعيش هناك.

زار لبيب صديقه في بيته، وأكتشف هناك الحقيقة، حقيقة اعتزال زوجه الحياة وعدم مشاركته في الزيارات، كان يعاقبها لأنها أنجبت طفلة مشوهة، تصرخ في الليل أكثر من النهار، وتفتك بمن يقدم لها الطعام عدا أمها، وقد سجنها في زنزانة في بيته، ومنعها من الاتصال بأي إنسان فيما عدا أمها. واستنكر منه هذا الإذلال وقال له:

- ألا يكفي أن الطبيعة حرمتها نعمة العقل. ألا تعرف أن هناك أولاداً اسمهم المغول. يولدون بلا عقل أو بعقل ناقص. وهناك مدارس في أمريكا خاصة بهم. إن سجنها يزيدها ثورتها وهياجها وعدوانيتها. يجب أن تفك عنها القيود وتعاملها بإنسانية، تعاملها كطفلة ولو أنها بلغت الرابعة عشرة من العمر. واستمر تعاملها برقة وحنان، وسوف تهدأ أعصابها. إن ما فيها من سجن يجعلها

تتدهور أكثر مما هي متدهورة. أنت أشبه بالمستعمر الذي يدخل بلداً فيلغي التعليم ويكمم الأفواه و..

توقف عن تعنيفه، وهو يري دموع لبيب تسيل من عينيه. استغرب أن يكون هذا الرجل الرقيق ذا الصوت الهادئ الخافت، الذي يحاول المستمع إليه أن ينصت إلى ما يقوله حتى يستوعبه، يقسو على طفلة حرمتها الأقدار من نعمة العقل، وحولتها إلى حيوان أعجمي. ليعتبرها نوعاً من القردة أو الغوريللا. ومثل هذا النوع يمكن استئناسه بسهولة لو تمت معاملته بلطف ورقة وحنان.

خرج من زيارته وهو ساخط. وتحول السخط إلى فرح وحبور. فجأة حينما تلقى من جامعة لوس أنجلوس موافقتها على تعيينه في هيئة التدريس مقابل أربعين ألف دولار في الشهر. أمسك بالخطاب، وطفق يدوره أمام عيني كرستينا، وهو منبسط منشرح، وقد تلاشى ما كان في قلبه من سخط على صديقه. وكرستينا مندهشة. ثم تمكنت من اختطاف الخطاب من يده، انتزعته انتزاعاً، وأخذت تقرأه. وتقول: أوه .. أوه .. ثم تلقي نفسها في أحضانه، وقد انتفخت بطنها تماماً فهي حامل في الشهر السابع. وسألت:

– كيف سأركب الطائرة وأنا حامل؟ ..

– لننتظر حتى تلدي .. وأكون أنا قد انتهيت من كل تعاملاتي. في مصر .. ونذهب معاً

– أكنت تنوي أن تسافر وحدك.

– وهل أستطيع ذلك؟ ..

كان شهر مايو على الأبواب، يوم أنهى الدكتور عباس محاضرته في الكلية، وتوجه إلى مكتب العميد، ليزف إليه خبر توقفه عن التدريس، وأنه سوف يسافر إلى أمريكا، وذلك بالنسبة للعام القادم.

ومر على الأساتذة الزملاء يودعهم لأنه قد لا يراهم بعد ذلك اليوم. وصافح الدكتور عاطف بامتنان، وقال له هامساً:

- أريد أن أراك في أمريكا.

- أرسل إلى العنوان .. أو كلمني بالهاتف .. وسوف أكون عندك أنا ومرجريتا. وزار الدكتور جمال عصراً ومعه كرستينا، وشربا معاً شاي الساعة الخامسة، وزوج الدكتور جمال تقدم على المائدة الحلويات التي صنعتها، ولا تأكل منها، وتكتفي بشرب الشاي دون سكر وتقول:

- بدأت أترهل.

تقول كرستينا:

- إن الحمل سوف يفتق كل جسدي.

- بعد أن تضعي طفلك .. سوف تعودين كما كنت رشيقة.

قال الدكتور جمال:

- عرض عليّ وزير التخطيط اليوم أن أكون مديراً لمكتبه.

- وهل قبلت؟ ..

- إنها وظيفة بجانب عملي في معهد التخطيط. ولو أني أفضل أن أسافر إلى الكويت. مطلوب أن اعمل في معهد التخطيط هنالك.

- أعتقد أن سفرك إلى الكويت أمر لا بأس به. أما مدير مكتب الوزير فمحل نظر.

- قد أسافر .. وحينما أعود استلم إدارة المكتب. ثم ضحك وقال: ومنه استلم الوزارة.

- تريد أن تضرب عصفورين بحجر.

- لا .. العصفور الأول سيضرب بحجر الآن. أما العصفور الثاني فسوف يُضرب بحجر آخر غداً. وضحكا.

ثم بدأ الدكتور في زيارة أخوته وأخواته.

زار عبد السميع أولاً، وأخبره بسفره. فقال عبد السميع متسائلا:

- إنك لم تقض خمس سنوات تعمل كما ينص قانون البعثات.

قال عباس ضاحكاً: أنس .. انس.

هز رأسه وهو يقول: سوف أنسى.

وحينما زار عبد الغني. كانت وداد في البيت، فاستقبلته وكرستينا في برود، وقامت بتجهيز الشاي والكعك، وجعلت مشيرة تدخل به، ولزمت حجرتها، وخاطبت نفسها قائلة: حينما يسألني عبد الغني لم لم تدخلي للجلوس معنا، سوف أقول له كيف تجلس الفلاحة مع الأسياد. يكفي فقط أنها منت عليه وصافحت الدكتور الوقح. ولم يهتم عباس لعدم وجودها. وأحتضن أخاه الحضن الأخير، وأنصرف وكرستينا متعلقة بذراعه، لا تتركه أبداً. ورأتهما وداد وهما يخرجان فقالت لمشيرة:

- حبها ملتهب جداً .. يا سخطة!! ..

وزارا صفية وزوجها. وكان معتز جنبلياً جداً، لدرجة أنه استنكر تحرر الدكتور عباس، وترك امرأته تسير شبه عارية. وكان يرمق خلسة فخذ كرستينا الظاهر بوضوح من الفستان القصير. ولكن سخطه لم يخرج عن دائرة نفسه، ولكنه راح يقول:

- لا أظن أن الإسلام يمكن أن يدخل بلداً مثل أمريكا.

يؤكد عباس قائلاً: إن في أمريكا مسلمين أكثر مما في مصر.

يقول معتز: كيف يمكن لامرأة أن تكون مسلمة وتمشي عارية الرأس. كاشفة الصدر. مفاتنها ظاهرة للعيان. هل يمكن أن تكون هذه المرأة مسلمة. وكيف يعيش مسلم وسط هذه المفاتن يذهب ويجيء. إذا ركب مترو صادفته. وإذا فتح باب بيته قالت له: أنا هنا.

يقول عباس: مصيرك أن تأتي إلى أمريكا. وتقول أبصم بالعشرة أن هذا إسلام.

وزارا أميمة. واستقبلهما زوجها صفوت بالأحضان. ولم يبد على الرجل أنه أتخذ موقفاً من أخي أميمة، ولو أن وجهه لم يكشف عما فيه من مرارة من الدكتور الساخر، يسخر منه كلما جالسه في مجلس كأنما يحاول أن يقول له إن الدكتوراه التي تقوم بتحضيرها لا تساوي في نظري ثلاثة مليمات. يدرك جيداً أن الدكتور مغرور ومتعال ويظن أن أحداً لن يبلغ مرتبة عالية من العلم غيره، ولكنه لا يصرح بما في نفسه. مقابلة وتنتهي على خير.

وأخيراً زار علوية، واستقبلته علوية وابنتاها عالية وكاميليا. وأخبرهن أنه على وشك السفر بعد أن تضع كرستينا مولودها. وسأل عالية:

- ألم تعثري على النصاب يا عالية؟

قالت: يا خالي. يبدو أنه فص ملح وذاب في شربة ماء.

# الفصل السابع عشر

## وقت الرحيل

حان الآن وقت الرحيل. عليها أن تغادر البيت الجميل، بعد أن قضت فيه أربع سنوات. تعيش فيه طالبة في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. وفي نفس الوقت حرم الرائد طيار عبد الغني حميده دون أن تعرف زوجه أو أولاده بهذا النسب. زوجه متباعدة عنه لدرجة أنها لا تعبأ به. وصار عليها دور أن تقوم بالتسرية عن ذلك المطعون في قلبه. أخرجت الخنجر - خنجر الهجر - من فؤاده، وضمدت الجراح، حتى التأمت. وها هي قد انتهت من الامتحان النهائي الأخير بالكلية، فأصبح من غير اللائق أن تبقى في البيت. ليس هناك مبرر للبقاء، ولا تدري ما سيفعل بها عبد الغني.

ترتب حاجياتها القليلة، وتضعها في الحقيبة، وهي تحاول أن تكبح الدموع. ويدخل عليها عبد الغني، جاء مبكراً من عمل، يعلو وجهه ابتسامة وضاءة، ويضمها إليه ويقبلها، ويقول:

- أستعودين إلى القرية؟

- وماذا تبقى غير ذلك؟ .. لا حجة لي في البقاء هنا.

يعاود تقبيلها، وهي تقول:

- إن بقائي هنا يثير الشك ..

تقتحم وداد الحجرة، وهي تقول:

- الشك مثار منذ زمن . وتأكدت الآن.

كان عبد الغني لا يزال يضمها إليه، فلم يتركها، فسألته: ألا تختشي وأنت تضمها أمامي؟

كانت مشيرة مرتبكة، مضطربة، حتى أنها لم تحاول أن تفلت منه، وقد غاض الدم في وجهها، وظهرت سمرتها كأنها كركم قد صُبغ به الوجه. وعبد الغني ثابت كأنه يدير معركة جوية، ويخوض الوغى وهو قوي الجأش. وقال:

- من حقي أن أضمها دون أن اختشي، فهي زوجتي.

اضطربت وداد وسألت:

- منذ متى؟

- منذ زمن بعيد.

- وفي بيتي.

- هذا ليس بيتك. إنه بيتي. وأنا ادفع إيجاره.

- إذاً طلقني.

- أمامك القضاء. اطلبي الطلاق فإذا استجاب القاضي فأهلا وسهلاً. وإذا لم يستجب فليس أمامك غير أن تستسلمي. ونفقتك ونفقة أولادك الذين حرمتني منهم سوف تصلك في أول كل شهر. يمكن أن تتقاضيها من المصرف مباشرة، وأصدر لك أمراً بذلك. ..

قاطعته بقولها: أنا لم أحرمك من أولادك.

ولكنه استكمل كلامه وقال لمشيرة.

- هيا بنا يا مشيرة .. أصلك إلى المحطة.

وألقى حقيبتها الصغيرة في الخلف.

سألته مشيرة، وهي تستجمع قواها التي تشتت من الموقف الرهيب، وقد كف الانتفاض قليلاً في عضلاتها: ولم لم تضعها في حقيبة السيارة؟

ضحك وهو يقول:

- لأن حقيبة السيارة مملوءة هي الأخرى.

- وأين ستذهب؟

- نذهب الآن إلى فندق تابع للقوات المسلحة، نقضي فيه يومين حتى نشتري شقة واسعة نعيش فيها معاً.

- ألن تعود إليها؟

- أعود إلى هذه المتغطرسة. ماذا فعلت لها حتى تقف هذا الموقف ضدي زهاء عشر سنوات. مالي أنا وأخي الذي قال عنها فلاحة من كفر البلاص. أرادت أن تكون متفرنجة حتى تعجب. تعجب من؟ .. لا أدري. تلبس أحسن الملابس. وتتكلم كلمة إنجليزية وكلمة عربية. ترتاد النوادي ولا تبرحها. وتلعب التنس وتعوم في حمامات السباحة. وأين حقوق الزوج؟ .. فليذهب إلى الجحيم!.

تلتصق به وتقول: بعد الشر عنك يا حبيبي.

ماذا ستقول عنها الآن؟ .. سوف تدمغها بالخيانة. وسوف تعيرها بوضاعة الأصل. أتخطف زوجها من بيتها وتتزوجه في نفس الوقت؟ .. وستذهب إلى القرية التي منعت عنها نفسها زمناً طويلاً، لتروي قصة خاطفة الرجال. ولكنها لم تخطف عبد الغني، هو الذي لاحقها، وأغواها، ولم تستطع أن تقاومه .. من يستطيع أن يقاوم عبد الغني؟ .. إذاً ابشري بأخرى سوف تخطفه منك؟. أبداً. لن تكون هناك أخرى. سوف أمتعه وأنسيه أهله وأولاده.

وسمعته وهما يخلدان للنوم يقول:

- غداً تذهبين إلى المستشفى لنزع ذلك اللولب من جسدك إلى الأبد.

# الفصل الثامن عشر

## طعام الصقور

قال منصور ضاحكاً:

- فكرة جونسون كانت إنشاء قوة بحرية متعددة الجنسيات قوامها سفن من أكبر عدد من البلدان البحرية التي لديها استعداد للعمل، وأسطول صغير سرعان ما عرف باسم ريجاتا البحر الأحمر يقوم بعد ذلك بعبور المضيق - مضيق تيران.

قالت كرستينا كأنما تتذكر:

- نعم .. نعم .. لكن الخطة فشلت. كان هدفها تحدي حصار ناصر حول المضيق .. فماذا يمكن أن يحدث لو أطلق المصريون النار على سفينة أمريكية؟

قال منصور مقاطعاً:

- يبدو أنك تقرئين في السياسة كثيراً.

قالت كرستينا:

- وماذا افعل بعد أن تزوجت تركت العمل. وحينما جئت هنا إلى القاهرة، وجدت العمل في المستشفيات مقرفاً، فما لدي من بكالوريوس تمريض يعامل هنا كدبلوم تمريض. (همس منصور لنفسه: إنه أفهمنا أنك طبيبة في العلاج الطبيعي وتركت المهنة من أجل الزواج. هذا الرجل مغرم بالكذب رغم سنه الكبيرة، يبدو أنه كان يريد أن يجمل صورتك أمامنا).

جاء منصور إلى القاهرة في مهمة عسكرية، فلما سمع من أخيه عبد السميع أن الدكتور عباس ينوي الهجرة إلى أمريكا، وجد أن زيارته واجبة، وعليه أن يودعه إلى لقاء. غير أنه لم يجده في البيت فأضطر إلى مسامرة زوجه في الشئون العسكرية حتى يأتي.

قال منصور: إن إسرائيل زعمت قبل قيام حرب يونيه أن هناك هجوماً وشيكاً مصرياً تجاهها. غير أن المخابرات الأمريكية حللت الموضوع من كافة جوانبه وانتهت إلى أن ليس هناك هجوم وشيك.

قالت كرستينا: لقد قرأت وقتها أن اجتماعاً دار بين أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل في ذلك الوقت في وزارة الدفاع وبين الأمريكيين. وقالوا له هناك إن إسرائيل يمكنها الفوز بسهولة على مصر، وأن القتال لن يستغرق أسبوعاً ...

قاطعها يريد أن يوصلها إلى سخريتها التي تبتغيها: ولم يستغرق القتال ست ساعات!! .. ووقفت الولايات المتحدة الأمريكية موقف الحياد. بل طالبت بوقف إطلاق النار ولم تقرن طلبها بالانسحاب. يومها أعلن ناصر أن أمريكا اشتركت بصورة مباشرة في الهجمات الجوية. وقطعت ست دول عربية علاقتها الدبلوماسية مع أمريكا. وأدعت أمريكا أننا ضربنا السفينة ليبرتي، واتضح فيما بعد أن طائرة إسرائيلية هاجمتها.

جاء الدكتور عباس، فأخذ أخاه بالأحضان، ودامت قبلاتهما طويلاً، والمرأة الأمريكية تستغرب هذه القبلات، لأنها لا تجد رجلاً في أمريكا يقبل رجلاً آخر، وبررت المرأة سلوكهما بأنه سلوك أخوين يفتقد أحدهما الآخر. ثم جلسا يتبادلان الحديث، وكرستينا

تقوم بتحضير مائدة العشاء، وبطنها تتقدمها. غير أن قميص النوم الفضفاض قد أخفاها قليلاً. استأذن منصور قائلاً:

- أريد أن أزور عبد الغني أيضاً.

ضحك عباس وهو يقول:

- لن تجده في بيته ..

- لم؟ .. حالة طوارئ في القوات الجوية وأنا لا أعرف.

قال عباس وهو لا يزال يضحك:

- لقد ترك بيته الآن، ويعيش في أحد فنادق قواتنا المسلحة.

- معقول؟

- أتضح يا سيدي أنه متزوج من بنت خالة زوجته مشيرة .. منذ سنة أو أكثر.

- ما هذه الأخبار يا عباس؟ .. أنا لا أصدق!! .. وكيف الوصول إليه؟ ..

قال عباس كأنما يغني:

- كيف الوصول إليه وليس في اليد حيلة.

أراد أن يوقفه عن الغناء فقال له:

- أتعرف أنك السبب في فشل هذا الزواج؟

التفت إليه عباس، وكرستينا تنهض لتعد فنجانين من القهوة، وسأل: كيف؟

قال: وصل إلى سمع وداد أنك قلت عنها إنها فلاحة من كفر البلاص، فأرادت أن تثبت لك أنها أكثر تمديناً منك، فبدأت بتهيئة

نفسها لحياة أرستقراطية عريضة، وأغفلت واجباتها الزوجية من أجل ذلك. واضطر عبد الغني أن يعاشرها من أجل أولاده.

نهض عباس كالمفزوع:

– غلطان. إن هذه الفلاحة كان يجب أن تؤدب، وهي تتجاهل واجباتها الزوجية. لو كانت زوجتي لما رحمتها.

– مثلما لم ترحم بنت المقاول.

– بنت المقاول قصة أخرى. لم تكن تنجب. ولم تكن تريد أن تتحرك من مصر. أما هذه الفلاحة ...

قال منصور ضاحكا:

– أنت عنصري .. ما الفرق بين الفلاح والحضري .. كلاهما يشرب .. كلاهما يأكل .. كلاهما يتزوج ..

قاطعه وهو يقول: الاختلاف في الطريقة يا عزيزي.

– وهل الطريقة تبيح أن يكون هذا في الأسفل وذلك في الأعلى. ماذا تركت لشعب الله المختار. إنهم يظنون أنفسهم جنس راق .. ونحن أجناس رديئة.

قال عباس: لا وحياتك. إنهم يظنون أنفسهم أنهم الصقور .. ونحن الحمائم .. وقد خلقت الحمائم لتكون طعاماً للصقور.

# الفصل التاسع عشر

## هدير المدافع

كان موقع مجاهد الجديد ككاتب لدفتر الأوامر في الكتيبة موقعا جعله يتعرف على أشكال كثيرة من البشر. من هذه الصفوف التي كانت تأتي بخطوات منتظمة لمكتب القائد. البعض منها يطلب إجازات لزيارة العائلات. والبعض الأخر يُطلب له توقيع عقوبة قاسية جزاء لفراره من المعركة، أو بسبب غيابه دون إذن، أو مغادرته الكتيبة بإذن، واستمرأه الحياة في الخارج، ويتم القبض عليه، ويعود من جديد تحت الحراسة.

يوماً جاء عبد المسيح باكياً. فلاح من أسيوط، تم تجنيده وهو متزوج، وذلك قبل حرب يونيه، واستمر في الجيش لأنه لم يستكمل السنوات الثلاث، وقال لمجاهد: يا ليتني مت في الحرب.

سأل مجاهد: وما السبب؟ ..

- إنني لا أستطيع أن أعول أسرتي. وأنا هنا تحت السلاح.

- ألم تستكمل مدة خدمتك بعد؟ ..

- لا .. باقي حوالي ثلاثة شهور.

- أبشر .. بعد الشهور الثلاثة سيكون من حقك أن تتقاضى راتباً أكبر بكثير من راتبك وأنت مجند.

- والمسيح! ..

ويدرك أن مجاهد مسلم، فيقسم من جديد: والله! ..

لكن يعاود البكاء مرة أخرى، وهو يقول: وافق القائد على إجازة ١٨٨ ساعة. ثم يعاود البكاء: ماذا أفعل؟ ..

قال مجاهد: قم بها وزر عائلتك.

- لكن لا أملك مالاً .. وكيف أذهب وكيف أعود .. وكيف ادخل عليهم خالي الجيوب.

قال مجاهد وهو يضحك: لا داعي لأن تحزن. أنا أعرف ترزياً هنا في الكتيبة، سوف أوصيه أن يحيك لك الجيوب، فتدخل عليهم والجيوب مقفلة. وحينما تعود يفك لك الخياطة. ولم يفهم عبد المسيح النكتة، فربت عليه مجاهد، وعبد المسيح ينظر ببلاهة ويقول: أهه!! ..

وأخرج مجاهد من جيبه عشرين جنيهاً، ودسها في جيب عبد المسيح، وهو يقول: أدفعها على مهلك. أدخل عبد المسيح يده في جيبه وتحسس الورقات. وقال: معقول!! .. قال مجاهد: أنت صديقي .. والصديق لا يظهر إلا وقت الشدة.

قدم له رقيب أول الكتيبة ورقة تسمى أورنيك ذنب. بحبس العريف زعتر عنتر .. شهر سجن مع تجريده من رتبته لغيابه دون إذن مقبول زهاء شهر. دون مجاهد نص الحكم في دفتر الأوامر. وسأل رقيب أول الكتيبة:

- كيف هان عليه البعاد هكذا عن الكتيبة يا جناب المساعد؟

رمقه قائلاً: أتسخر يا عسكري؟ ! ..

قال مجاهد وهو يمعن في السخرية: لا أبداً .. الحياة هنا حلوة .. هادئة .. لا نار .. ولا صرخات قنابل.

هز رقيب أول الكتيبة رأسه وقال:

- لا تتمادى في التفاؤل ياسي مجاهد .. سوف نبدأ القتال مرة أخرى.

بدأ القتال في تلك الليلة. تحولت السماء السوداء الخالية من الأضواء إلى سماء نارها تضيء. وتفرش أضواءها على الأرض والقناة. تجدد هدير المدافع، وعاد الإقدام إلى الجند من جديد، وزال الخوف قليلاً من القلوب. وكان مجاهد يظن أن وقف إطلاق النار لن يحدث مرة أخرى. ولكن حرب الاستنزاف تجددت. وعرف أن الطائرات الإسرائيلية لو أغارت على العمق فسوف تمنعها حوائط الصواريخ، فقد أصبحت جاهزة.

وحزن كثيراً لاستشهاد الفريق عبد المنعم رياض رئيس أركان حرب الجيش المصري. وكان مقتله في منطقة الإسماعيلية. واستمع مجاهد من المذياع الصغير إلى عبد الناصر يعلن المرحلة الثالثة من مراحل القتال ألا وهي مرحلة التحرير. وتساءل بينه وبين نفسه: كيف إذاً ستعبر القوات هذا السد المنيع المسمى بخط بارليف؟ ..

بينما يستمع مجاهد إلى المذياع وهو يرسل صوته خفيضاً حتى لا يصل إلى مكتب القائد، كان زعتر عنتر يدخل المكتب ليقوم بمسحه وكنسه وتلميع المكاتب. مكتبه ومكتب رقيب أول الكتيبة، ومكاتب بعض العرفاء المتواجدين معهما في الحجرة.

سأل مجاهد: هل أنت زعتر عنتر المسجون؟

نظر إليه زعتر بغضب، ولكنه أدرك أنه في مكتب الإدارة فتراخي في غضبه. كانت عضلاته المفتولة بارزة، ووجهه الغضوب مكفهراً، قال بذلة: نعم ..

سأل مجاهد، وهو يقفل المذياع:

- ماذا كنت تعمل في الملكية؟

قال زعتر بغير مبالاة: كنت أعمل بلطجي راقصات.

- ولم تغيبت يا زعتر؟ ..

- أبداً .. الكيف .. وقلة المال .. هنا .. كما ترى لا كيف ولا مال.

- والنساء؟ ..

قال ضاحكا، وهو يشير بإصبعيه علامة الإضافة:

- والنساء أيضا!! . .

- أثبت يا زعتر؟ ..

- وهل بعد هذا الذل لا يتوب الإنسان؟ ! ..

- وماذا تنوي أن تفعل؟ ..

- سوف أكون فدائياً .. يا سيدي.

- يا رجل .. أنا لست سيدك .. أنا مثلي مثلك!.. كل ما في الأمر أن في يدك قيوداً .. ويدي خالية من القيود .. ولكن ما الذي غيرك هكذا ..

- احتكاكي مع الزملاء .. في البداية كنت منعزلاً .. وحينما جئت إلى المعسكر اتخذت لنفسي طريقاً بعيداً عنهم. ولما غبت عن

المعسكر وعدت مسجوناً. شعرت أنني أجرمت في حق نفسي .. وحق وطني ..

قال مجاهد صارخاً: يا ولد.

قال زعتر: أتسخر .. أنت تعرف مجالس الحشاشين .. تجمع بين الواطئ والعالي. بين السيد والفرفور .. تجمع بين ماسح الأحذية وابن الباشا. وكلهم يجاهدون في سبيل سحب الأنفاس. وهنا نفس الوضع .. فلاح وعامل .. وصاحب عمل .. طبيب ومهندس وصبي عجلاتي .. كل الأصناف .. وكلهم يجاهدون في سبيل نصرة الوطن، فهل أنا أتأخر عن ذلك الركب؟ ..

ثم سكت واستطرد:

- أتعرف .. لقد طلقت السيجارة .. والمشروب .. والحشيش أيضاً. منذ يومين أخذت النفس الأخير من السيجارة المحشوة ديناميت. وقررت ألا أعود إليها مرة أخرى .. وإذا كانت النساء هي المشكلة الآن فلأعبر القناة. وهناك أمارس الحب مع اليهوديات. وأقتلهن بعد ذلك.

قال مجاهد: الله يخيبك.

# الفصل العشرون

## يوم التحرير

سموه لديكم يوم الغفران. وسوف نسميه نحن لدينا يوم التحرير. أنطلق عبد الغني بطائرته مع أسراب أخرى من الطائرات، ليعبروا الضفة الشرقية، وهناك يتعاملون مع الأهداف المحددة. كان هادئاً للغاية. هكذا يجب أن يكون الطيار. ترك وراءه كل متاعبه الشخصية، بل هو مستعد أن يلقى بها من نافذة الطائرة، لو كانت تُفتح. وصار لا يفكر إلا في تحقيق الأهداف المنوطة بالسرب والأسراب الأخرى، المكلف بها هو وزملاؤه. عرف أن كلمة السر "صدام" ولما وصلته انطلقت الميج ٢١ بسرعة البرق، تحولت الحمامة إلى صقر، بل تحولت الحمائم إلى صقور. وكانت أخواتها قد ضُربت منذ سنوات وهي راقدة في عشها لا تلوى على شيء.

لقد تعايش عبد الغني الآن مع الأمر الواقع. لا يزال يسكن ذلك الفندق التابع للقوات المسلحة مع زوجه مشيرة. ومازال ينتظر منها مولوداً، ولكنه لا يأتي، ويبدو أن اللولب أفسد قدرتها على الإنجاب، وهي تأخذ الآن العلاج اللازم. ولعل وداد تتقصى أخبارهما لتعرف ما إذا كانت ستضم إلى أبنائها أخاً جديداً أم لن تتمكن مشيرة من ذلك. وقد انقطعت الصلة بينه وبينهم. صار الأولاد في حضن أمهم، تذهب في أول كل شهر إلى المصرف لتتقاضى راتباً لتنفق منه على الأولاد وعلى نفسها، لأنه لم يطلقها، ولن يفكر في طلاقها. وهي راضخة لا تريد الطلاق ولا تلح فيه لا تريد أن تهرب من العز.

أما أخوه صاحب القول المشهور الذي أفسد حياته، فقد أنجب طفلة، وسافر بها إلى أمريكا تصحبه كرستيناته، ولم يسمع أخباراً عنه. إنه مقل في خطاباته، بل إنه ممتنع عن الكتابة كأنما ينتظر أن يتلقى خطابات منهم فقط. يظن أنه كبير العائلة ولا يعرف أن عبد السميع هو كبيرها.

اطلع عبد الغني على الخريطة التي أمامه. وكان من المقرر أن يدمر مركزاً للقياد المركزية الميدانية أو يصيبه على الأقل بالشلل. ورأى الموقع هادئاً كأنما لم يكونوا ينتظرون المفاجأة المهولة. ورأي كأن جندياً قد نشر فوطة على كتفيه متوجهاً إلى دورة المياه. غير أنه بوغت بالانفجارات فهرول يحاول أن يتستر بدشمة، ولكن الشظايا طفقت تلاحقه. وقد استمتع عبد الغني من دقة التصويب، وواصل مهمته. وبدأ بضرب قاعدة جوية إسرائيلية تتمركز فيها طائرات العدو في الخطوط الأمامية من سيناء، انقضت عليها الصقور المصرية، فدمرت محطة الرادار ومراكز الإعاقة والشوشرة الإلكترونية. وأرضية المطار. وجاء دور موقع صواريخ هوك الأمريكية. ماذا سوف تفيدكم الآن وأنتم مسترخون في يوم الغفران، ألا يستدعي ذلك من حكمائكم أن يفتوا بأن العمل مستمر في يوم الغفران مادام هناك قتال. لقد حطمتم صواريخنا أو قواعد الصواريخ عندنا وحان الوقت لنحطم صواريخكم. وبدأت الطائرات المصرية تبعثر القنابل على مدارج الطائرات، ولما تأكدت أن مهمتها كللت بالنجاح، عادت إلى قواعدها سالمة.

في عودته، رأى عبد الغني أسراباً من القوارب المطاطية قد وصلت إلى الضفة الغربية. ورأى كائنات دقيقة تقفز في الماء. إنها

ستغوص لتوقف نشاط أنابيب النابالم وأنابيب الاشتعال. سوف تسد فوهات الأنابيب ولن تمرق قطرة واحدة منها. ولم يشاهد عبد الغني ما حدث من ثغرات في خط بارليف العتيد. إنها الخط بين ثغرات صنعها تدفق الماء فيه. ولم يشاهد عبد الغني الجنود المصريون يزأرون ويهتفون الله أكبر في عز الظهر. ولم يشاهدهم وهم يطعنون ويقاتلون ويخوضون في دشم العدو يفصلون الأرواح الطاهرة عن الأجساد النجسة.

سأل عبد الغني زميلاً له كان في السرب:

- كيف تمت العمليات؟

قال: تم إبلاغ تمام القوات الجوية للقيادة. المهمة تم تنفيذها بالكامل في أوقاتها المحددة. عادت جميع طائراتنا عدا طائرة واحدة استشهد قائدها.

أختطف قلب عبد الغني وسأله:

- من يكون؟ ..

قال الزميل وهو يكتم دموعه:

- إنه عاطف.

عصر عبد الغني عينيه كأنما يمنع تدفق الدموع ويمنعها من الانزلاق خارج الجفون. وقال: ترى ماذا سيفعل أخوه أنور؟ ..

# الفصل الحادي والعشرون

## أنت تفطر الآن

عرف مجاهد واجبه في حرب التحرير، يوم أن أُرسل إلى التدريب على فرقة لبناء الجسور. تحول من فرد مشاة إلى فرد هندسة عسكرية. وكان في ذلك اليوم المشهود يبني مع زملائه جسراً يمتد من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية يوصل ما أنقطع. وكان بيومي وزملاؤه قد سبقوهم بقواربهم المطاطية إلى الضفة الشرقية. والطائرات تموج فوق سيناء. تذهب وتجيء. تفرغ حمولاتها من القنابل لتعود تحمل من جديد حمولة جديدة لتفرغها بدورها على مطارات العدو.

كان بيومي هو وزملاؤه يعرفون أنهم سيفتحون ثغرة في خط بارليف ليصل الجسر إليها. مجرد ماء يتدفق بآلة ميكانيكية سوف يخترق الساتر الرملي فينهار، ويفسح الطريق أمام مرتكز للجسر ومنه تتدفق الدبابات والمجنزرات والسيارات المحملة بالعتاد والجنود.

لم يكن مجاهد يفكر وقتها في شيء. شعر أن ملل السنوات الماضية قد أنهار. شعر أن السد الذي كان يحول بينه وبين الانطلاق قد تم تدميره. وحينما بلغ الجسر الثغرة الواسعة، كانت الدبابات تجري عليه بمرح، كأنها تتزحلق على الجليد في خفة ولو أنها تزمجر. وسمع أصوات الرصاص وتهليل الجنود: الله أكبر .. الله أكبر .. وهو ماض يضع اللبنة الأخيرة مع زملائه في الجسر.

وتذكر زعتر عنتر. إنه الآن في المقدمة. قد أُطلق سراحه منذ زمن من السجن وعاد جندياً فدائياً كما كان واسترد الشريطين بعد أن أبلى بلاء حسنا في إحدى العمليات السابقة. ولابد أنه يمرح الآن مع الإسرائيليات. سيتوقف منذ الحين استحمامهن في القناة عاريات، لأنهن إما أن يؤسرن أو يرحلن إلى بلادهن أو يمتن ميتة الكلاب في الأراضي الخراب.

وصل القائد عند الغروب، وقد استولى الزملاء على الموقع. وعبرت الدبابات وأرتال السيارات والجنود. وانتشروا حول الموقع الجديد وفي كل الزوايا. ووقف البعض يحرس بشدة وعيون يقظة. وأذن زميل من الزملاء لصلاة المغرب. وكان البعض قد أصر على الصيام وهو يقاتل. وجلسوا يأكلون بعد الصلاة. الإفطار كان لذيذاً يأكلونه بلذة وشغف، تعيين جاف لكنه لذيذ. وقضم زعتر عنتر قطعة من بسكويت، وهمس لزميله:

- لم أعثر على واحدة.

قال زميله محتجاً: استغفر الله .. نحن صيام.

- يا عزيزي .. أنت تفطر الآن.

مال على زميله الآخر وقال:

- يبدو أن هذا الموقع كان خالياً منهن.

همس الزميل، وهو يقول:

- إجازة أربعة وعشرين ساعة .. تقضي حاجتك في شارع الهرم .. وتعود مرتاحاً.

ضحك زعتر وقال:

- ومن يكذبك؟ .. إنهم الآن يرقصون على أنوار الشموع في عز رمضان .. حينما كنت في أيام الغياب ، كانت الجبهة مشتعلة هنا .. وهناك كان المغني يغني سلامتها أم حسن .. ويقبض النقوط والنساء من حوله يرقصن .

ابتسم الجندي، فقد كان القائد قريباً منهم يأكل مع الجنود، فلم يستطع أن يقهقه.

سأل القائد: كم عدد القتلى؟ ..

أجاب نائب القائد: اثنان فقط إستشهدا. والثالث غياب.

سأل القائد: من يكون؟ ..

- إنه بيومي أسعد.

وسرت همهمة بين الجنود أن بيومي أختفي في ظروف غامضة. وأشار أحد الجنود أنه رآه يطارد جنوداً ركبوا سيارة جيب انطلقوا بها. فما بقى ساكناً إنما ركب سيارة أخرى كانت في الموقع وطاردهم. وانشغل الجندي وزملاؤه بالتعامل مع الإسرائيليين في الموقع حتى مات منهم من مات واستسلم من استسلم. لكن بيومي لم يعد من المطاردة.

سأل مجاهد: أتراه قُتل؟ ..

# الفصل الثاني والعشرون

## تكرار التجربة

كانت الأم قلقة. تذهب وتجيء. تستمع قليلاً إلى الإذاعة فلا تجد غير الأغاني: الله أكبر.. الله اكبر. والأب جالس بالقرب من الشرفة على كرسيه الهزاز. يقرأ القرآن بصوت خافت لا يثير ضجيجاً.

قالت الأم: ألا يوجد لديك قلق أبداً؟..

قال الأب: ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

- معقول يا عبد السميع لا تشعر أن لك ابناً في مقدمة الجيش الثاني. والآخر ألتحق بالجيش الثالث. والثالث أنضم إلى وحدة صواريخ بالإسماعيلية .. ولا يهتز لك قلب.

قال عبد السميع بهدوء:

- وماذا أفعل؟ .. أصرخ. إن لي أخاً مقاتلاً طياراً .. ولي أخاً ضابط بحري يسد عين باب المندب .... حتى لا تحاول إسرائيل النفاذ إلى المحيط. إنه يحاصرها مع زملائه في آخر الدنيا. هذا هو قدرك يا أم العسكريين.

يرن جرس الهاتف، وتسأل علوية:

- أليس هناك أخبار عن الأولاد يا رئيفة؟ ..

- لا .. والله يا علوية. إن قلبي يأكلني.

- على العموم. خير إن البيان الذي أذيع الآن جاء به إن الخسائر البشرية قليلة.

- والله .. أين سمعته.

- سمعته في الإذاعة في البرنامج العام.

- إذاً عن أذنك لأسمعه.

وأعادت فتح المذياع من جديد، وكانت قد قفلته بسبب ما يُذاع من أناشيد.

وضعت علوية السماعة، ونظرت إلى بناتها المتجهمات الثلاثة. أول مرة يساورهن القلق جماعة. لم يكن يشعرن بحرب الاستنزاف. وحينما اندلعت حرب أكتوبر تذكرن أن لهن أقرباء في آتون المعركة كأن العائلة كلها في هذا الأتون. هناك أبناء خالهم الكبير، وخالاهما الطيار والبحار. وكانت صدفة أن يجتمعن في البيت بعد طول فراق. جاءت وفاء الثالثة المقيمة في الكويت واندلعت الحرب فأرجأت سفرها. وتصادف اليوم يوم إجازة عالية من المستشفى. وكانت كاميليا متوعكة فلم تذهب مع لطفي كعادتهما إلى الفندق. وكان لطفي قد تزوجها وعاش معهن.

ترمق كاميليا أمها خفية وتتساءل: أحقاً تركت الرجل وأصبحت مطلقة الآن؟ .. لقد ألححت عليها حتى لا يلاحظ لطفي أن أمي متزوجة زواجاً عرفياً يخالف التقاليد الرسمية ولو أنه زواج شرعي. وتستبيح صرف معاشين دون سند قانوني.

وكانت علوية تستمع إلى الأناشيد في المذياع، وهي تتذكر موقفها الأخير مع المقاول الثري. يوم سألته:

- ما المانع أن يكون زواجنا موثقاً؟ ..

قال كأنما يعرف نقطة ضعفها:

- وتخسرين معاشين يا روحي؟

- وما المانع إذا كنت أنت ستعوضني .. لتعطيني عشرين ألف جنيه أضعها في المصرف باسمي. ونشهر زواجنا.

- وماذا ستستفيدين من هذه الخطوة؟ ..

- تكون علاقتي بك في النور .. ولا أتقاضى أموالاً مسروقة في غفلة من الحكومة؟ ..

- الحقيقة ليس معي.

وانبرت في هذه اللحظة قائلة:

- يوم يكون معك قل لي .. والآن لتعطيني ورقة الزواج العرفي .. وأنا معي ورقتي .. سوف نمزقها معاً. وتلقي يمين الطلاق عليّ. وأغادر البيت. ويوم يكون معك في محفظتك عشرين ألف جنيه تعال إليّ واطلبني للزواج الرسمي.

أعطاها الورقة دون أن ينبس، فقد كان يحتفظ بها في حافظة نقوده، وأمسكتها منه، ومزقتها مع الأخرى، بعد أن تأكدت أنها فعلاً وثيقة الزواج العرفي، وحينما غادرت من الباب قال لها: أنت طالق يا علوية.

شعرت حينئذ بالراحة. لا ظلام هناك. ولا سرقة ولا غش.

كانت عالية تتأمل التلفاز دون أن يكون عقلها مركزاً عليه. كانت عينان تتأملان فحسب وهي شاردة. ثم فكرت في ذلك الطبيب الذي ظهر فجأة في حياتها. لا أحد يعرف عنه شيئاً. غامض حقاً.

ويبدو أنها بؤرة للغامضين تجذبهم إليها . يتكلم بمقدار. متأنق أكثر من اللازم كأنه سيقابل وزيراً. يعمل في صمت. فوجئت به يقول لها: أحبك. وأريد أن أتزوجك. قالت: أتعرف كل شيء عني. قال: نعم طبيبة نشطة مطلقة. سألت: وهل أنا أعرف شيئاً عنك؟ .. قال: طبيب أيضاً .. مقطوع من شجرة (مرة أخرى) لي شقة فاخرة بها كل الوسائل الحديثة لربة البيت. سألت: ألن تكون عقبة في طريقك مسألة أنني تزوجت من قبل وتم طلاقي؟ .. قال بثقة: أبداً أبداً .. ثم سأل: متى آتي لمقابلة ماما. لم تعطه إجابة شافية. كانت تجربتها الأولى مريرة تحول دون أن تقدم من جديد على تجربة جديدة. ولذلك فإنها تتطلع إلى أمها حتى تنتهي من سماع نشرة الأخبار لتفاتحها في الأمر.

نهضت وفاء غير منشغلة بنشرة الأخبار. لم تكن تهمها الحرب كثيراً ولا إذاعاتها. كان يشغلها أمر الطفلين اللذين تركتهما على أمل أن تغيب أياماً فمنعتها الحرب من السفر. يوم أن تزوجت وسافرت إلى الكويت، وأنجبت ولداً وبنتاً، استقرت هناك لا تزور مصر إلا مرة واحدة في السنة. في هذه المرة لم تأخذ معها طفليها تركتهما مع المربية الفلبينية هناك، وقد تغيرت طباعها، حتى أنها أصبحت تتكلم بالطريقة الكويتية تعطش الكاف، وتحول الجيم إلى ياء. وأصبحت عاداتها مثل عادات أهل الكويت. واندمجت في عائلة زوجها التي تعيش معهم في نفس الدار الواسعة. كل ما كانت تخشاه في حياتها أن تجد زوجها قد تزوج عليها أخرى وأهملها وأصبحت هي الزوجة الثانية خاصة أن هذه العادة تكاد تكون مقدسة في العائلة، وأبو زوجها نفسه متزوج من ثلاث. فماذا ستفعل

في هذه الحالة هل ستغادر الكويت معترضة دون أبنائها أم ستقبل وضع الزوجة الثانية من أجل البقاء مع أبنائها؟ .. مشكلة لكن صباح زوجها التاجر الهمام لم يكن يفكر في ذلك كما ظهر لها. لم يكن الجنس يهمه كثيراً. وفكرت حتى تشغل وقت فراغها أن تستكمل تعليمها، فانتسبت إلى كلية التجارة. غير أن دراستها تعثرت لكنها كانت مصرة. وكانت تربية الطفلين تعوقها عن مواصلة دراستها والنفاذ من الجامعة بشهادة. يمكن بهذه الشهادة أن أخترق سوق العمل وأستقل بشخصيتي ولا أكون عالة على زوجي فإذا ما تزوج فلا يكون هناك أهمية للأمر.

انتحت عالية جانباً بأمها وسألت:

- ماذا تفعلين إذا ما تقدم لي عريس؟ ..

قالت: والله بركة يا ابنتي .. وهل أكره؟ ! ..

ثم قالت الأم: لا بد أن نسأل عنه جيداً هذه المرة يا عالية .. وإلا ظهر مخادعاً كالأول.

# الفصل الثالث والعشرون

## كيسنجر هو المحور

مثلما لم يحضر زمن النكسة، لم يشهد عصر الانتصار. مر التوقيتان وهو في أمريكا. في المرة الأولى كان يدرس للدكتوراه. وفي المرة الثانية كان يحاضر في جامعة لوس انجلوس. إنه يلقي دروسه على الطلاب صباح عدد من الأيام. ويرأس مجلس إدارة شركة صغيرة للتصدير والاستيراد في أيام أخرى وفي الأمسيات. كان يؤمن أن في التجارة تسعة أعشار الرزق، فجمع بين التدريس في الجامعة وبين العمل في شركة للتجارة الخارجية. شجعته كرستينا على المضي قدماً في خطواته. ولو أنها لم تمارس العمل معه إنما عادت من جديد للعمل في أحد المستشفيات الكبرى.

رُزقت كرستينا بطفلين. الأولى ولدتها في القاهرة. وكانت بعد النكسة. والثاني رُزقت به قبل الانتصار ولدته في لوس انجلوس. لم يعر الدكتور عباس أمر استمراره في لوس أنجلوس أهمية، فلم يكن يقلقه أن طفليه لن يتكلما اللغة العربية ولا حتى ينطقاها باللهجة العامية المصرية. ولم يكن يخاف أن لا يتعلما تعاليم دينهما فقد وعد نفسه أن يلقنهما مبادئ الإسلام بدقة، ووعد نفسه أن يدعو كرستينا نفسها إلى الإسلام، لكن ذلك فيما بعد. ورغم أنه حصل على الجنسية الأمريكية، غير أنه كان لا يفتأ تعصف به ذكرياته وهو في مصر، وهو طفل، وهو صبي، وهو في مركز السلطة. عسكرية كانت أم مدنية. الحنين إلى الوطن لم يفارقه أبداً، وإن كان يضغط عليه حتى لا يكون مؤثراً. شعر الدكتور عباس بمصريته، حينما

ألتف حواليه الطلاب العرب، يريدون مزيداً من تطور الأحداث في مصر، بعد انتصار أكتوبر. وكان الطلاب قد عرفوا أنه كان ضابطاً سابقاً بالقوات المسلحة المصرية، وأنه خاض غمار الدفاع عن مصر وفلسطين في عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٥٦. وأنه كان من أول المسئولين عن الشركة العالمية المؤممة لقناة السويس البحرية. وأنه أمضي بها سنوات قبل أن يفكر أن يغير خط نشاطه من موظف إلى أستاذ جامعي. إن رغبته في العلم جعلته يسافر إلى أمريكا للدراسة ..

ألتف الطلاب حواليه، يلقون الأسئلة ويطلبون استفسارات عن الحرب ونتائجها، كأنما له صلة مؤكدة بالقيادة في مصر.

يقول الدكتور عباس للطلاب الملتفين حوله:

- أمريكا منذ البداية تعمل لصالح إسرائيل. وقد تركت البحث عن تسوية النزاع العربي الإسرائيلي لأطرافه وللسفير يارنج. ولم تحاول أن تتدخل. وهكذا تدور المفاوضات بين أمريكا وإسرائيل أو بين أمريكا والدول العربية فقط. حبال الحديث متقطعة. وهي تحاول أن تترك مسألة الحدود النهائية للأطراف ليتم الاتفاق عليها فيما بينهم. وتباعدت هي عن أن تفرض أي تسوية.

وقال الأمير خالد، وكان من المستمعين:

- لقد استطاع كسينجر أن ينحي روجرز جانباً. وقاد هو العمليات التفاوضية لصالح إسرائيل.

- لا تنس يا خالد أنه يهودي. ولا يمكن حتى لو أدعى الإلحاد أن يتنصل من يهوديته أو يعمل ضد بني جلدته. كان كسينجر ينتقد

أسلوب وزير الخارجية ومساعده سيسكو منذ بداية معالجة مشكلة الشرق الأوسط. كان ولا يزال يعتقد أن إسرائيل تقف على أرض صلدة لذلك يرفض زعماؤها تقديم تنازلات. كان يطالب بطرد السادات للسوفيت حتى يمكن الشروع في المحادثات.

ثم قال عباس: لقد أنفرد كيسنجر بالسلطة بعد أن نشبت الحرب، ونيكسون مشغول بجمع الأدلة بشأن فساد نائبه سبيرو أجينو. كسينجر يا أولادي هو المحور الآن.

انتحى الأمير خالد بالدكتور عباس جانباً، وقال:

- لقد تحدثت لوالدي بشأن إنشاء فندق كبير في مصر. وطلب مني إعداد دراسة جدوى عن المشروع. فما رأيك لو قمت بهذه الدراسة؟ ..

- هل والدك مستعد لتمويل المشروع؟ ..

- لا شك .. لكن يحتاج فعلاً لدراسة الجدوى حتى يعرف مقدار ما سوف ينفقه.

- هذا الوضع يقتضي الانتقال إلى مصر، لأعرف هناك أسعار الأراضي. وأسعار اللبنات المختلفة في تشييد وتأسيس وتأثيث الفندق.

- فلنسافر معاً إلى القاهرة .. خلال إجازة ديسمبر من السنة الدراسية.

# الفصل الرابع والعشرون

## قال بيومي

قال بيومي بحماس:

- إنهم مجموعة من الهاربين من معسكرهم الذي دُك فوق رؤوسهم. استطاعوا أن يتقدموا إلى سيارة جيب مكشوفة. تسللوا ببطء بين الدشم حتى وصلوا إليها. وكان التراشق بين الجنود مستمراً. رأيتهم وهم يتسللون. ورأيت بالقرب منهم سيارة جيب أخرى. وركبوا جميعاً - كانوا خمسة - السيارة، وتركوا الأخرى. أنبسطت فعلاً. وحملت الآرباجا وقفزت إلى السيارة الأخرى. واستمررت أطاردهم. نظروا خلفهم فوجدوا أنني جندي، وأقود سيارة عليها النجمة السداسية. ظنوا أنني أفر معهم لا أطاردهم. ولما دنوت منهم أطلقت قذيفة من الآرباجا، فاستقرت مدفونة في سيارتهم. وتمهلت حتى لا أصطدم بهم.

ثم همس بيومي لمجاهد قائلاً:

- أصدقك القول. أردت البحث عن البدوية وكان عليّ أن أنتقل من شمال سيناء إلى جنوبها. لكن الجبال والطرق غير الممهدة حالت دون ذلك. وجدت الطريق أمامي شبه مقفل. انتظرت حتى الصباح وقد علمت الشمال من الجنوب بنجوم السماء. وفي الصباح عدت من جديد إلى المعسكر رافعاً الراية البيضاء، حتى يظن الجميع أنني جندي إسرائيلي جاء مستسلماً.

قال مجاهد متسائلاً:

- ومن أين عثرت على الراية البيضاء؟

ضحك وضحكوا معه زملاؤه وهو يقول:

- إنها فانلتي:

ولما أمتثل أمام القائد وروى الحكاية مرة أخرى، طلب منه القائد ألا يطارد أحداً إلا بأذن فقال:

- خشيت أن يقوموا بالإبلاغ عن نصرنا فأردت أن أوقف نموهم. وقد كنت على وشك أن أجز رؤوسهم غير أن القذيفة كانت قد بعثرت الرؤوس.

قال القائد وهو يربت عليه:

- سوف أتأكد من صدق كلامك يا بيومي فيما بعد.

قال بيومي: بيومي لا يكذب أبداً.

وسمعوا صوت نائب القائد يصيح في الجميع:

- قول دبابات معادية. تفرقوا واستعدوا لمواجهته.

حمل بيومي الآرباجا الخاص بصيد الدبابات. وأنتحى جانباً والقول يتقدم. ثم عالج مقدمة القول بقذيفة. خرج السائق يولول من الدبابة، وقد اشتعلت النيران فيه. وتفحم الآخرون داخل الدبابة. واستتر الجنود الآخرون وراء الهضاب المترامية على الطريق. وطفقوا يرشون الدبابات بالقذائف. ويخرج منها الجنود يولولون. والبعض الآخر توقف وخزج رافعاً يديه علامة الاستسلام.

رأي بيومي أن في آخر القول بدأت الدبابات تتقهقر عائدة إلى طريق العريش، فجرى بين الرمال والمنحدرات والزلط والرمل

الناعم يصطدم بحذائه الجامد. رشق الدبابة الأولى المتقهقرة بقذيفة، فتوقفت، وخرج السائق مشتعلاً، وهو يصرخ. وقال ضاحكا: وأنا مالي أنت الذي هربت ولم تستسلم.

عاد بيومي إلى المعسكر، وقد وقف الأسرى صفاً صفاً .. صفوف تملأ عين الشمس كما قال أحد العساكر. ومجاهد يكتب اسم ورتبة كل جندي. تارة يجيب بالعربية. وتارة يجيب آخر باللغة الإنجليزية. ومرة سأل أحدهم: ما اسمك ورتبتك؟ .. لم يجب. سأله بالإنجليزية فلم يجب. سأل أحد الجنود: هل هناك من يعرف العبرية فيكم حتى يجيب عن ذلك المشلول لسانه. تطوع أحد الجنود الإسرائيليين وأجاب عنه فكتب مجاهد الاسم والرتبة وهو ينظر شزراً إلى الجندي الساكت. وسمع القائد يقول:

- بالراحة يا مجاهد .. لا تكن شرساً.

ويبدو أن نبرة الغضب قد تفشت في سؤاله إلى الجندي، فأدرك القائد أن مجاهد سوف يخرج عن طوره.

مال بيومي على مجاهد وهما ينامان ليلاً وقال:

- أريد منك أن تراعي اتفاقية جنيف بشأن أسرى الحرب وأنت تعامل الأسرى الإسرائيليين.

قال مجاهد ساخراً: حتى اتفاقية جنيف تعرفها؟؟..

قال بيومي: ألا تعرف إنني موسوعة متنقلة!! ؟ ..

سأل مجاهد: أنت مؤهلات ولا عادة يا جدع؟ ..

أجاب بيومي: لن أقول لك.

# الفصل الخامس والعشرون

## أنت الأولي

كان يرقد عبد الغني في فراشه بعد أن عاد من المستشفى. يتأمل الموقف بالتفصيل. كيف أصطادت القذيفة الطائرة. وهو يدك معسكر الأعداء في الثغرة. إن الوضع جاء مفاجئاً وهكذا الإصابة تكون مباغتة. ولم يكن أمامه إلا أن يهوى بالطائرة في داخل المعسكر المصطنع للأعداء في السويس. وقفز بالمظلة والطائرة تأخذ طريقها بما تحمله من قنابل ومتفجرات إلى وسط المعسكر. غير أن قفزته بالمظلة لم تكن موفقة. سقط على أرض غير منبسطة، مليئة بالتلال الصغيرة، فسقط على واحد منها وتدحرج، وارتطمت رأسه بالحجارة والزلط. وانثنت قدمه تحته، وترك في العراء يوماً كاملاً، ولم يشعر بالألم لأنه غاب عن الوعي، حتى اكتشفت دورية استطلاعية وجوده، فتم نقله إلى المستشفى، وهناك تم وضع قدمه في الجبس، وتضميد الجراح التي جفت دماؤها. وهاهو يعود من المستشفى ليرقد في بيته الجديد. اسكان وظيفي كما يسمونه في القوات الجوية بالقرب من نادي الرماية الدولي بالهرم. وعرف أن نقله قد تم إلى مطار غرب القاهرة، ذلك المطار الذي كان ينادي عليه أصحاب السيارت بالنفر بالمطار السري، فكيف يكون سرياً وهم يعرفونه؟ ..

ترعاه مشيرة في البيت الجديد، وتقوم على تلبية كل طلباته. إفطار في الصباح. وغداء في الظهر. وعشاء في المساء. وإذا

رفض تقدم له الزبادي حتى تقهر صدة النفس لديه. تجبره على الأكل حتى لا يضعف.

يرن جرس الباب، وهي ذاهبة لإحضار كوب ماء للمقاتل قعيد الفراش. تفتح مشيرة الباب فتجد أمامها ثلاثة صبية. تعرفهم جيداً حمدي الكبير في الرابعة عشرة من العمر. وأيمن الوسيط في الثانية عشرة من عمره. وأشرف الولد الصغير الداخل إلى التاسعة. ضمتهم إليها وهي تقول: أهلاً يا حبايبي

قال حمدي: نريد أن نرى أبي؟

قالت: تعالوا .. سوف يفرح بكم كثيراً.

مضت أربع سنوات لم يشاهد الأب أبناءه إلا لماماً. حالت الحرب والأم دون رؤيتهم. وحينما عرفوا من عمهم عبد السميع – واسطة الخير بينهم وبين أبيهم – بما أصابه، قرروا أن يزوروه في بيته الجديد، مهما كانت عقبات التباعد. استقبلهم المقاتل الجريح بالبشر، فهم ليسوا أعداءه إنما أمهم هي التي صنعت الجفوة وباعدت بينه وبينهم. وسألت مشيرة:

– كيف عرفتم الطريق؟

قال أيمن: عمي عبد السميع هو الذي دلنا.

– وكيف جئتم؟ ..

– جئنا مع ماما .. إنها تنتظرنا في أسفل العمارة.

تركت مشيرة كوب الماء، ووضعته بجانب عبد الغني، فقد شرب من حب أبنائه الكثير وارتوى. ونزلت إلى الشارع تستطلع مكان وداد. كانت واقفة عن بعد عن محطة السيارات العمومية

تحت ظل شجرة تنتظر أن تنتهي زيارة أبنائها لأبيهم. كانت عيناها دامعتين، وتحاول التماسك. تقدمت مشيرة منها، وهي تعاتبها بمرح:

- أتبقين في الشارع .. يا أبنة خالتي .. إن البيت بيتك.

صافحتها ثم ضمتها إليها. ضرتها وبنت خالتها ولكن أخلاقها راقية. حاولت وداد أن تتمنع في الصعود لرؤية زوجها، غير أن مشيرة قالت لها: ألا تريدين أن تزوري زوجك الجريح؟

قالت وداد: وهل عبد الغني زوجي؟ ..

قالت مشيرة: طبعاً .. أنت الأولى.

دخلت حجرة النوم حيث يرقد عبد الغني، وقالت وهي تغالب الدموع:

- سلامتك يا بطل.

قال عبد الغني ضاحكاً، والأولاد يبتسمون:

- ألا توجد قبلة لهذا البطل؟ ..

مالت عليه. أربع سنوات لم يمسسها. ضيعته من يدها بكبريائها المصطنع. وترفعها غير المقبول. ولثمها في خدها. ولثمته في خده. وأجفلت مشيرة، لكنها تماسكت: كأنك تخشين من عودة الوفاق بينهما. ثم تباعدت وقد فك يده من يدها. وكان يستند إلى ظهر الفراش، فحاول أن يتركه. غير أن مشيرة قالت:

- لا داعي للرسميات ..

يا لمشيرة. امرأة عالية الأخلاق، لم يكمن الحقد في قلبها تجاهي - أنا بنت خالتها - لأنها ضرتي، ونزلت لتستقبلني الضرة بالترحاب. وهاهي الضرة لا تتعالى وتتواضع. لم ينفعني الترفع في يوم من الأيام، إنما قضى على حياتي الزوجية. ولكن عبد الغني لم يكن خسيساً فلم يطلقني، ولو أنه حاول أن يتصل بي، لكني تمنعت. ورغم ذلك لم يمتنع عن دفع النفقة الشهرية، بل لم أمانع في قبولها. ولو أني استمررت متباعدة وأباعد بينه وبين الأولاد.

قال عبد الغني ضاحكا:

يبدو أن آخي عبد السميع أصبح وكالة رويتر العائلة لم يتوقف عن إبلاغ الجميع بما أصابني في الثغرة. كأنما كان يريدهم أن يروا الوسام قبل أن تضيع معالمه.

وأشار إلى الجبس في قدمه.

# الفصل السادس والعشرون

## مصري في موسكو

عاد من موسكو إلى الحرب. أو كما يقولون من الدار إلى النار. وجد موقع الصواريخ جاهزاً. وقيل له إنه تم ضرب كثير من الطائرات الإسرائيلية المغيرة. بعضها هرب والبعض الآخر تم إسقاطه، وقد تعرض الموقع لكثير من الإغارات قبل بنائه، ولكن القائد العام أصر على بنائه وتشييده. وتم تجهيز الصواريخ عليه متنقلة وثابتة.

لقد أمضي وقتاً في موسكو للتدريب على إطلاق الصواريخ ابتداء من سام (٦) إلى سام (٢) و (٣). مدى الأول أقل من مدي الثاني. والثالث وسط بينهما. اثنان متحركان والآخر ثابت. وكل نوع من هذه الصواريخ مجهز بجهاز توجيه إلكتروني مختلف عن الآخر مما يجعل مهمة استخدام إجراءات مضادة ضده من قبل الطائرات المغيرة صعب ومعقد.

كان يترك مدرسة التدريب يوم الأحد، ليتفرج على معالم موسكو، ويتجرع كؤوس الفودكا، غرامه الجديد، وهناك في حانة من الحانات التقي صدفة إلينا جوزيف، تلك الغانية التي جذبته من الوهلة الأولى. حتى أنه ساءل نفسه: هل تتزوج روسية يا مدحت؟ .. وما المانع؟ .. إن عمي عباس تزوج من أمريكية، فيمسك هو الكتلة الغربية. وأنا أتزوج من روسية فامسك الكتلة الشرقية. لكنها عاهرة؟ .. وأنت عسكري! .. ولم يواصل حديث النفس بعد ذلك.

في اللقاء الثاني سألته إن كانت له شقة خاصة، غير أنه صرح بإدغام أنه يعيش في معسكر للتدريب. حاولت أن تعرف نوع التدريب غير أنه غيّر الموضوع. لم يكن جائزاً أن يصرح إنه مصري جاء يتدرب على صواريخ سام القاتلة للطائرات.

وفي اللقاء الثالث دعته إلى بيتها. حجرة ليست نظيفة. يبدو أنها لا تدخلها إلا قليلاً وإذا دخلتها وأكلت فيها فإنها لا تنظفها. وإذا كانت تنظفها فذلك يحدث من حين لآخر. ونالها في ذلك الوقت على الفراش المقرف، والفودكا تلعب بعقله، لكنها لم تعرف أنه كان متمرساً على الخمر في القاهرة مع ثلة من الأصدقاء، وان له سهرات وجولات في مجال الجنس لا تروى. ووجدها تسأله عن معسكر التدريب الذي يتدرب فيه. غير أنه أدعى أنه لا يفهم سؤالها. واستطاع بقبلة طويلة الأجل أن ينسيها الاستماع إلى الإجابة. ولو أن علامات اليأس منه لم تظهر في عينيها.

وكان اللقاء الأخير مفاجأة لإلينا، فلم يذهب إلى الحانة التي يلتقيان فيها إنما توجه رأساً إلى حجرتها فاقدة النظافة. لا أهمية للنظافة في هذه الحالة فالعمل قذر. ولا يعقل أن يتم عمل قذر في بيئة نظيفة. وفوجئت به يدخل عليها، لكنها بسطت أساريرها، وأخذته في أحضانها، ولم تعترض على مجيئه دون سابق إنذار. كانت من نوع الروسيات اللاتي يحافظن على رشاقتهن فكانت تلعب ألعاباً رياضية أغرقتها في العرق، فطلبت منه أن تستحم أولاً وتتعطر ثانياً وتكون تحت أمره. تركته في حجرتها ينتظر، حتى تنتهي. وقرأ كتاباً كان مستتراً تحت كومدينو له رف بلا باب. وعرف أنه التوراة مكتوب بالروسية. إذاً فتلك الغانية يهودية تعبث

به. ولا شك أنها عرفت أنه يتدرب في معسكر تدريب للقوات المسلحة، ولو انه لا يظهر ببذلته العسكرية، فوثقت علاقتها به ولاشك أنها تسعى أن تستحلب منه المعلومات عن تدريباته وعدد الأنداد معه من المصريين. ولعلها أدركت أنه مصري فماذا يفعل مصري في موسكو. لا بد أن المخابرات الإسرائيلية تستفيد منها وجندتها. وهي إما تريد أن تجنده للتجسس على بلده وإما تريد أن تعرف المعلومات الكاملة عن برنامج التدريب. ولعلها تأكدت أو عرفت من بعض زملائه الروس الذين يأتون معه أنه عسكري.

ولم يتركها تلك الليلة ويمضي، إنما قضى وطره، وشرب معها الفودكا التي اشتراها، ودفع لها ما طلبته من نقود، دائما تتحجج بمصاريف لا تملكها، وتسأله أن يقرضها إياها. وعاد إلى المعسكر في ذلك اليوم، وقرر ألا يخرج منه حتى ينتهي من تدريبه. ولم ير إلينا بعد ذلك اليوم.

عاد إلى مصر، وسلم نفسه إلى كتيبته، وتم إرساله إلى الموقع الجديد بالإسماعيلية. ليكون بين طاقم ضباط الصواريخ المضادة للطائرات. وقد توقف من حظه دخول الطائرات الإسرائيلية إلى المجال المصري الجوي خشية اصطياد الصواريخ لها. كان هناك خمسون بطارية في منطقة القناة وحدها تحول دون دخول الطائرات. وكان نصيبه أن يكون من طاقم إحدى هذه البطاريات. وولولت يومها أمه حينما عرفت أنه سوف يسافر إلى خط القناة، وقالت:

- هذه غلطتي أنا .. أنا التي تزوجت عسكرياً وأنجبت أولاداً يريدون أن يكونوا عسكريين.

سألها مدحت: هل كان بإمكانك ألا تتزوجي عسكرياً؟ .. وهل كان بإمكانك أن تنجبي بناتاً بدلاً من الصبيان؟ ..

قالت بانكسار: لا.

قال مدحت: إذاً استسلمي للأمر الواقع يا أمي. وقد أموت دون رصاصة أو دانة مدفع فقد أموت وأنا على الفراش، وقد أترنح وأسقط على سن رصيف فأموت ..

قالت تقاطعه: بعد الشر عنك.

صاح أبوه: يدركم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة.

وكان لا يزال في مكانه بجانب الشرفة، والشمس ساطعة، يخترق شعاعها زجاج الشرفة بقوة، فيبعث الدفء. والقرآن الكريم في يده على الصفحة التي وصل إليها. ثم قال الأب بعد صمت: لقد خضت حرب ١٩٦٧ وكان الشهداء فيها لا يمكن حصرهم. وعدت إليك سالماً ولا حتى خدش. وهاهم جميع أبنائك دخلوا حرب الاستنزاف ولا يزالون سُلاماً.

قالت الأم مضطربة: إنهم ليسوا واحداً حتى أقول وهبته لله سبحانه. ولكنهم ثلاثة يا عبد السميع.

قال مدحت: اثنان عشقا العسكرية. وواحد من الثلاثة تم تجنيده، فلا تنزعجي إن الله معنا. ولا أريدك أن تكرري ذلك الموضوع أبداً.

لكنها كررته حينما أندلعت حرب أكتوبر ويوم حدثت الثغرة. الخوف على أولادها يطاردها دائماً ومهما كان الأمر فإنها أم تخاف على أولادها، وليست مثل هؤلاء الأمهات اللاتي يظهرن في التمثيليات لهن من القوة والشموخ والكبرياء ما تعجز عنه المرأة العادية. تقول كل واحدة منهن: وهبت ابني فداء للوطن. هي تريد أن تعيش وأولادها في كنفها. لا تريد أن تفقد واحداً منهم. ولا تغرب شمسهم أبداً قبل شمسها.

ولعلها عرفت بإغارة الأعداء على مدن القناة بطائراتهم ردا على طائراتنا. ولعلها عرفت أن ابنها صياد ماهر متدرب، اسقط العديد من الطائرات. أسقطت الحمائم الصقور. وكانت الصقور تتفاخر من قبل بقوتها وأن الزمن دائم لها ولسيادتها.

# الفصل السابع والعشرون

## الطبيب العريس

قالت علوية:

- جئتك يا عبد السميع في خدمة.

وتسمعت رئيفة لأقوالها، وهي تعد القهوة على موقد صغير، وهي تقول:

- جاء عريس للدكتورة عالية. ويريد أن يتزوج على الفور. لكن لا يمكن أن نسقط في الحفرة مرتين. طلبت منه أن ينتظر حتى نسأل عنه.

أعطته ورقة مكتوب فيها كل بيانات العريس. وقالت:

- مطلوب منك يا عبد السميع أن تسأل عنه.

أسهم طويلاً فقالت له:

- جئت إليك لأنك في المرة الأولى اتهمتني بأنني أهملتكم أنتم أخوتي في السؤال عن العريس الأول الذي ظهر أنه نصاب وهرب بمدخرات البنت وذهبها.

قرأ الورقة وقال:

- لكن كيف سأسأل عنه. هل أعمل مخبراً؟

تدخلت أم مدحت وقالت: تصرف. سل بعض زملائك. ألتفت إليها وهي تبدأ في صب فنجانين القهوة: هذا ليس عسكرياً. إنه طبيب مدني. وليس طبيباً في المستشفيات العسكرية. إنه زميل الدكتورة عالية. وعنوانه واضح فهل أسأل عنه آهل الحي؟..

قالت علوية: يجب أن نعرف عنه كل شيء.

نهض عبد السميع وقال: أهوه .. شغل جديد بدلاً من البطالة. أتحول إلى مخبر والسلام.

تقول زوجه: أحسن من البقاء في البيت.

ثم تنظر إلى علوية وتقول: ومناكفتي كل يوم. ثم تبتسم، فتبادلها علوية الابتسام.

خرج عبد السميع قاصداً العنوان المكتوب في الورقة. وهناك قابل بواب العمارة فسأله: هل الدكتور محسن شفيق موجود؟ ..

قال البواب: الآن لا .. ربما يأتي في المساء. سأله: هل له بيت آخر. قال البواب: لا أعرف.

ماذا يفعل الآن؟ .. إذا كان له بيت آخر، فسوف تتوه به السبل. . أين سيسأل عنه؟ .. كان يريد أن يقابله ويدرس شخصيته ويختبر أخلاقه ويعرف من تكون عائلته ومن أي بقعة ينحدر ويستشف من أحاديثه مدى تدينه.

وفي مقهى قريب من العمارة، طفق يزدرد الشاي، ويقرأ في جريدة أخرى غير الجريدة التي تأتيه في صباح كل يوم مع موزع الجرائد، وهي تصله صباح كل يوم في ساعة مبكرة، يلتقطها ويقرأ فيها أخبار الحرب ونتائجها. قلبه ملهوف على معرفة أخبار أولاده العسكريين الثلاثة. كان يتصور لأنه عسكري أن فؤاده سيكون صلباً غير أنه أدرك انه من لحم ودم وقلبه ينبض بالحب لأبنائه والخوف عليهم. ولكنه أخفى ذلك الإحساس المرهف وراء طابع

عسكري جامد لا تتمكن زوجه من النفاذ إليه. والحمد لله حتى الآن وبعد الآن على نجاتهم. الأول يطلق صواريخه فتسقط الطائرات المغيرة ويصمد في الثغرة .. والثاني في الجيش عبر إلى الضفة الغربية وشارك في بناء جسر عبرت به القوات القناة. والثالث في الجيش الثالث وصل إلى عيون موسى وشرب منها ولو أنه يقوم بمهمات بين الضفتين. ولم يصبه مكروه. غريبة أن يرزق بذكور ولا يرزق بإناث "يهب لمن يشاء إناثاً. ويهب لمن يشاء الذكور" صدق الله العظيم. ويكون ثلاثتهم في القوات المسلحة ويخوضون حرب أكتوبر.

يشاهد من بعيد سيارة بيضاء تقف عند العمارة المرصودة. كانت علوية قد أخبرته أن الطبيب العريس ثري وأن لديه شقة وسيارة بيضاء، كأنها لو كانت سوداء لرفضته. حتى ا لتفرقة العنصرية في السيارات! ..

يراه يخرج منها مرتدياً معطف الأطباء الأبيض. ولعله يسأل البواب عن أحد سال عنه. ولعل البواب أخبره. ويقرر أن يتجه لزيارته، ويقابله، ويغوص في أغواره.

يقدم نفسه عقيد سابق بالقوات المسلحة خال الدكتور عالية. جاء للتعارف. تنفرج أسارير الطبيب، ويصافحه بحرارة. ويسأله عن أهله، فيقرر أنه مقطوع من شجرة، وأن والده كان مزارعاً ثرياً ومات ولحقت به أمه. وأن لديه أراضي زراعية مؤجرة لذلك لا يذهب إلى البلد إلا لماماً حينما يؤجل الفلاحون دفع ريع الأرض. ولديه بعض العقارات. وأنه وجد أن الدكتورة عالية فتاة ذات أخلاق

متينة، والمهم في البنت أن تكون صاحبة دين وأخلاق، ولا أهمية للجمال رغم أن أحداً لا ينكر جمال عالية.

لما غادره عبد السميع، رفض أن ينصاع إلى فكرة أن الرجل مقبول، فقد شعر أنه مصطنع، وكان يجالسه ويحس أنه مخادع. وجلس في سيارته، تلك السيارة التي يستعملها لماماً حتى في زياراته العائلية يفضل أن يذهب بسيارة أجرة، ولا يركبها، فالوقوف في ركن من أي شارع اصبح معضلة. جلس في سيارته، ورآه يخرج من العمارة بعد نصف ساعة من اللقاء، ويركب سيارته البيضاء. ولأنها بيضاء لم تغب عن نظره، ولا غربت عن بصره. ولعل الدكتور لم يلاحظ أن أحدا يتتبعه في مسيرته فكل السيارات التي تسير في الشوارع سيارات صغيرة ١٢٨، وسيارته هي الأخرى، ولو أنها زرقاء، من نفس النموذج. وكان قد استطاع أن يشتريها من القوات المسلحة ودفع فيها أقساطاً شهرية قصمت وسطه، ولكنه إلحاح أم مدحت دفعه لأن يشتريها، ويذهب إلى نوادي القوات المسلحة بها. وقد كان الغربال الجديد له شدة، فأخذها إلى كل النوادي، وعندما أحيل إلى الاستيداع ثم إلى المعاش، لم يعد يذهب إلى أي ناد، صار قرداً يجلس في قفصه، ولا يقفز من مكان إلى آخر. واستمر يقرأ القرآن الكريم والصحف. وهاهو الآن يعمل مخبراً.

وفي قصر منيف في منطقة الأهرام، استطاع أن يري الدكتور محسن شفيق يدخل أحد القصور، ويفتح له البستاني أبواب القصر على مصراعيها. لم يحاول أن يسأل في ذلك اليوم عن علاقة

الدكتور محسن بالقصر. إنما لأجل السؤال إلى اليوم التالي. وعرف أنه ابن صاحب القصر. وأن والديه لا يزالان على قيد الحياة. وأنه متزوج ولديه أربعة أولاد. وعرف أكثر أن زوجه كان من مبادئها إذا غلبها بالمال فلتغلبه هي بالعيال. بل لما تعمق في البحث والتحري حتى عرف أن زوجه كانت تعمل خادماً في القصر. وعاشرها في الحرام حتى حملت، ولما كبرت بطنها، اضطر أن يتزوجها، وكان لا يزال تلميذاً في كلية الطب. وبدأت معه رحلة إنجاب الأولاد حتى أمرها أن تكف عن الإنجاب وإلا طلقها. فامتنعت عن الإنجاب. ولا يدري أحد كيف لعبت هذه المرأة بعقل الطبيب المثقف، لكن الغواية قادرة فاجرة. كل هذه المعلومات استخلصها عبد السميع، وهو يرتدي الملابس البلدية، من البستاني، حينما يجلس معه في المقهى القريب من القصر. على مر أيام طويلة. كان يستخلص منه المعلومات، ويتعمق في الصداقة معه، ولا يبخل عليه بشاي وشيشة بصفة يومية. وكان الرجل كأنما أدرك أن عبد السميع يستقي منه معلومات، فكان في البداية حذراً، ثم لما اطمأن إلى المعلم عبده أفاض بما عنده. الدول الكبرى والصغرى تدفع في الحصول على المعلومات آلاف الجنيهات، وهو يستخلصها من رجل أمي بما قيمته كوب شاي وشيشة.

هل ستوافق الدكتور عالية على ذلك الطبيب العريس الكاذب المخادع المتزوج من امرأة منذ سنوات وله منها أربع أولاد؟ .. ربما .. فهي عقيم - كما أخبرته أخته علوية - ولابد أنها تحتاج إلى رجل.

# الفصل الثامن والعشرون

## لن يلتقيا إلا صدفة

قال عبد السميع بإمعان:

- جعلتموني أعمل كالبهلون. ارتديت ملابس بلدية جلباباً وعمة. ووضعت شالاً على كتفي، اشتريته إمعانا في التخفي. تقمصت صورة المعلم رضا. وجالست البستاني. بستاني قصر العريس.

أنصتت علوية وعالية لكلمات عبد السميع باهتمام والدهشة تمسك وجهيهما. بينما أم مدحت تقوم بإعداد أكواب الشاي لهم. وقال أخيراً:

- الأمر الآن لك. لكن اعتقد أنه رجل كذاب، لن تكون حياته معك سوية أو سليمة. ثم هل سيترك زوجه وأم أولاده في قصر أبيه، ويعيش معك في شقته بالدقي. أم سوف يفاجئك بالحقيقة ويطلب منك أن تعيشي معها في القصر. لقد كذب عليك حينما قال إن أبويه ماتا. والواقع أن والديه لا يزالان على قيد الحياة ويعيش هو وزوجه وأولاده في كنفهما. ربما صدق فقط في أنه ثري، ولكن الثراء ثراء الأب. ويبدو أنه يغدق عليه لأنه وحيده ويغفر له كل الأخطاء.

قالت علوية تبرر تصرفات الطبيب:

- يبدو أنه زهق من الخادم التي تزوجها .. وأراد أن يتزوج طبيبة من وسطه.

- إن الغلطة غلطته يا علوية. ولا يجوز إصلاحها على حساب سعادة ابنتك أو بالأحرى على تعاستها في المستقبل.

ضحكت أم مدحت وقالت:

- يبدو أنك يا عبد السميع لو قدمت طلباً إلى الشرطة لتعمل مخبراً .. فسوف تنجح.

تقمص شخصيته العسكرية الصارمة وشخط فيها قائلاً:

- أم مدحت ..

قامت وهي تداري ابتسامة على شفتيها بكف يدها. بينما علوية تبتسم، وعالية كظيم.

حينما ركبتا سيارة الأجرة من مصر الجديدة عائدتين إلى العجوزة. قالت الأم تهمس:

- مادام غنياً يا عالية .. وسوف يخصك بشقة. وأنت أو هو لا ينتظر أطفالاً، فلم لا تتزوجينه؟ ..

قالت عالية غاضبة:

- رجل كذاب ومخادع .. هل الحياة معه سوف تكون ... مستقيمة؟

- لقد كذب وخدع .. لأنه يخشى لو عرفت حقيقته سوف ترفضينه.

- ربما لو كان قد روى لي الحقيقة بحذافيرها ... لكنت قد قبلته زوجاً. أما الآن فأنا أعاني من الامتعاض.

نظرت الأم إلى الطريق كأنما تبحث عن حل. ولكن عالية لم تكن تبحث عن حل. كانت قد صممت على أن ترفضه. قالت له لما سألها:

- ماذا كانت تحريات خالك عني؟ ..

أجابت: تحريات قاطعة ..

أندهش وقال : قاطعة؟ .. كيف؟ ..

قالت: اتضح يا دكتور محسن أن والديك على قيد الحياة ولست مقطوعاً من شجرة.

أخرج منديلاً ورقياً من جيبه ليمسح به عرقاً مفاجئاً انبثق على جبينه وهي تواصل:

- واتضح أنك متزوج ولك أربعة أولاد.

أحنى رأسه خجلاً وهي لا تزال تتكلم:

- وأتضح أنك مخادع وكاذب.

قال لها: أرجوك .. كفى ..

لم ينكر ما قالته. ولم يحاول أن يثبته أو يعتذر عن الإدلاء به. إنما أبتعد على الفور. وطلب نقله من القسم الذي يعمل به مع عالية إلى قسم آخر. وتم نقله بصفة دائمة من العيادة الداخلية إلى العيادة الخارجية. وعرفت عالية أنهما إذا التقيا فلن يلتقيا إلا صدفة.

# الفصل التاسع والعشرون

## فكر غير عسكري

أدرك عبد الموجود أن قدره أصبح معلقاً بأخطاء حرب أكتوبر. لقد عاش مع القادة محنة الصراع بين القرار السياسي والقرار العسكري. وصل إليه ما دار بين القيادة السياسية ورئيس الأركان بالقوات المسلحة من نقاش حول توجيه الحرب. كانت لا تزال معظم القوات في الضفة الغربية وأراد بل آثر السادات نقلها برمتها إلى الضفة الشرقية، ولكن القادة عارضوا ذلك الإجراء لأن إرسال أرتال ضخمة من الدبابات إلى عمق سيناء سوف يبعدها عن حماية مظلة الصواريخ مما يعرضها إلى خطر التدمير. وأشاروا إلى قوة سلاح الطيران الإسرائيلي وما يملكه من سيطرة على الأجواء في سيناء، لكن الدماغ العسكري الجامد أصر. فما كان منه إلا أن أطاح برئيس أركان الحرب سراً، والحرب يتصاعد أوارها، وأختفي رئيس الأركان السابق، وتبعثر موظفو مكتبه، وأطيح بعبد الموجود إلى جبهة السويس تابعاً لكتيبة مدفعية في الجيش الثالث. وكان عبد الموجود قد نُقل من سلاح المدرعات إلى مكتب أركان حرب القوات المسلحة قبل اشتعال الحرب. وهناك برز عبد الموجود فقربه منه رئيس الأركان. وعندما انتهى دوره، عاد إلى كتيبته المنتدب منها وكانت في مواقع بين عيون موسى والضفة الغربية.

عامله زملاؤه بحذر، فهم لا يستطيعون أن يدركوا ما إذا كان لا يزال ذا نفوذ وسلطان أم أن هذا السلطان وذاك النفوذ قد انحسرا عنه، لذلك تباعدوا عنه. ولم يجد إلا واحداً في دفعته من أعز

أصدقائه في الكتيبة التي عاد إليها وهو هشام صلاح. ولم يحاول هشام أن يحذو حذو زملاءه، فطفق يأكل مع عبد الموجود، ويتكلم معه، ويسهر معه.

سأله هشام يوماً

- ألم تُكتشف عاقبة إقدام القيادة على دفع الاحتياط الرئيسي بكامله تقريباً غرب القناة؟ ..

قال عبد الموجود ساهماً: هذا ما قاله رئيس الأركان السابق! .. أليس ذلك فكراً غير عسكري؟ .. إذ أن ذلك يبعد قواتنا خارج نطاق مظلة الصواريخ.

استفسر هشام سائلاً: تقول السابق؟ .. هل عُزل؟ ..

قال عبد الموجود: هذا ما حدث. لقد تغير طاقم مكتبه، لذلك أنا هنا.

وفي اليوم التالي، وصلت إليهم الأنباء أن عدداً من الدبابات قد تم تدميرها، وردت قواتنا على أعقابها إلى المواقع التي بدأت منها.

قال هشام: ألم أقل لك؟ ..

قال عبد الموجود: إن قيادتنا ظنت أنها انتصرت في هذه البداية الموفقة للحرب. ولكنها معركة .. والمعركة لا تعني أن لا معارك أخرى قادمة بعدها. يبدو أننا عجزنا عن تقدير الحجم الحقيقي لقوات العدو .. أتعرف أن ذلك العدو تسانده أمريكا أقوى دولة عسكرية في العالم؟ ..

سأل: لم تتوه عنا الحقائق في الوقت المناسب؟ .. إن بن جوريون حول نظره من جي موليه رئيس وزراء فرنسا ناحية

أمريكا ليستفيد أكثر. حينما أدرك أن القوة الصاعدة هي أمريكا، وهي لا يمكن أن تخذله أبداً، لأن المال في أمريكا يسيطر عليه الصهاينة.

قال عبد الموجود هامساً: كان من رأي الفريق التدريج في بسط القوة العسكرية في سيناء. كان يهدف أن تتحصن القوات المصرية في سيناء أولاً، وتبني دفاعاتها على طول الجبهة. وتُنقل قواعد الصواريخ أو بعضها داخل سيناء ثم تتقدم.

ثم حدثت الثغرة، وعبد الموجود في مهمة للجيش الثالث في السويس، فحالت الثغرة دون عودته إلي سيناء مرة أخرى. ودخلت إسرائيل بقواتها إلى الإسماعيلية ومشارف السويس. وأنعزل الجيش الثالث في سيناء. واستهزأ هشام بالإعلام المصري وراح يقول: سبع دبابات فقط يا عبد الموجود. هذا كلام يا عبد الموجود. كيف أخرج من هذا الخندق وأذهب إلى الإذاعة وأقول الحقيقة.

قال عبد الموجود: أهدأ يا رجل .. لا تكن متهوراً، علينا أن ندافع عن بلدنا في صمت. وغداً سوف تظهر الحقيقة مدوية.

- قال هشام: لولا المهمة التي قمنا بها، لكنا الآن في سيناء محاصرين مع مقدمة الجيش الثالث. وماذا تفعل مؤخرة الجيش وهي تتكون من فرقتين مدرعتين. أين الإمدادات من القاهرة؟ ..

قال عبد الموجود: الخطأ من البداية هو دفع قواتنا إلى ممر متلا. أتتذكر يوم تلك المعركة الكبرى بين ألفين دبابة. لقد كانت معركة تدميرية رهيبة. لم تكن على الإطلاق في صالح قواتنا المسلحة لأن وحداتها المدرعة يوم تغلغلت في عمق سيناء فقدت

مظلة الصواريخ. أصبحت المدرعات مكشوفة للطيران الإسرائيلي. وبعدها بدأ الإعداد للثغرة.

تذكر عبد الموجود أن أخاه الكبير الحاصل على تدريب متقدم في موسكو في موقع قريب من القوات الإسرائيلية المتغلغلة في الأراضي المصرية. انزعج خشية أن يصيبه مكروه. وأفشي بلواعج نفسه لصديقه هشام. قال هشام متفلسفاً: من لم يصبه مكروه من الحرب فقد يصيبه هذا المكروه في السلم. إن الإنسان يخرج من الحرب إما شهيداً وإما صحيحاً وإما عاجزاً. والعجز درجات .. وهكذا في السلم فتوكل على الله وقل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. أجعل إيمانك كبيراً.

# الفصل الثلاثون

## مطاردة الرجال

جلست علوية في مقعد أمام الصراف في المصرف. الحاجز الحديدي الرخامي بينهما، تنتظر أن ينادي عليها الصراف لتصرف معاشها. حينئذ مال عليها رجل كبير السن وسألها:

- ألست مدام علوية حميدة؟

أجابت باستغراب: نعم .. كيف عرفتني؟ ..

قال: أولاً السلام عليكم.

ومد يده لمصافحتها غير أنها أحجمت فسحب يده وقال:

- أنا خيري .. جار درب سعادة القديم .. كنا معاً في المدرسة الابتدائية. وصرنا أصدقاء بعد أن كبرنا إلى أن رحلتم عن درب سعادة.

مدت يدها بامتنان وهي تقول ببساطة وقلب تفتح فجأة:

- تذكرت .. أهلاً خيري.

ناعمة يدها وصغيرة - لا بد أنه سيشعر بها - إنه حبها الأول. لكن لعله لا يتذكر. أو لعله تذكر وهذا ما دفعه لمصافحتها. لا تزال تحتفظ بأشعاره وهو لا يزال طالباً في الثانوي. كان يعطيها إياها إذا خرجت في مشوار من دارها. أو إذا كانت عائدة من مدرستها. وانقطعت الصلة بينهما يوم قرر سعادة اللواء الانتقال إلى مصر الجديدة. وباع الدار وذلك حتى يتزوج عباس أخوها الضابط بنت

مقاول. هكذا عرفت أمه. وفكرت علوية في الأمر وقالت لنفسها أنفق المال على بنت المقاول ولم يبق معها إلا سنة واحدة وتم طلاقهما. وسافر بعدها إلى بلاد العم سام بزعم أنه سيتعالج، وكان يهدف إلى أن يتعلم. صار طيف خيري يراودها، ولم تعرف عنه أي أخبار، بل تزوجت، وظل الطيف يلازمها، حتى وهي تمارس الجنس مع زوجها العليل، كان ذهنها يشرد إليه. كان الزوج مريضاً بالقلب، ورغم ذلك استطاع أن ينجب ثلاث بنات، ثم تدهورت حالته. ثم رحل. كانت ترفض ذلك الزواج منذ البداية، غير أن الأوامر العسكرية للواء حميدة كانت قد صدرت. غفر الله له. هل كنت تأملين أن يتقدم لك خيري؟ .. وكيف كان في إمكانه أن يعرف مكانك؟ ..

سمعت خيري يسألها:

- هل تزوجت يا علوية؟

أجابت: نعم . أنا الآن أرملة ولي ثلاث بنات.

قال: لا ادري ماذا أقول .. ما شاء الله .. أم أرثي لحالك.

قالت: لا .. أرث لحالي.

سألها: ولم لم تتزوجي أنت لا زلت صغيرة.

قالت: كبرت .. ألا ترى؟

قال: أبداً .. أنت لا زلت شباباً .. ألا ترين النضارة في عينيك؟ ..

أرادت أن تعلن له سنها، رغم أنه يعرفه، ويعرف أنه يكبرها بخمس سنوات، تعارفا وهو في السنة الأخيرة وهي في السنة

# الفصل الثلاثون

## مطاردة الرجال

جلست علوية في مقعد أمام الصراف في المصرف. الحاجز الحديدي الرخامي بينهما، تنتظر أن ينادي عليها الصراف لتصرف معاشها. حينئذ مال عليها رجل كبير السن وسألها:

- ألست مدام علوية حميدة؟

أجابت باستغراب: نعم .. كيف عرفتني؟ ..

قال: أولاً السلام عليكم.

ومد يده لمصافحتها غير أنها أحجمت فسحب يده وقال:

- أنا خيري .. جار درب سعادة القديم .. كنا معاً في المدرسة الابتدائية. وصرنا أصدقاء بعد أن كبرنا إلى أن رحلتم عن درب سعادة.

مدت يدها بامتنان وهي تقول ببساطة وقلب تفتح فجأة:

- تذكرت .. أهلاً خيري.

ناعمة يدها وصغيرة - لا بد أنه سيشعر بها - إنه حبها الأول. لكن لعله لا يتذكر. أو لعله تذكر وهذا ما دفعه لمصافحتها. لا تزال تحتفظ بأشعاره وهو لا يزال طالباً في الثانوي. كان يعطيها إياها إذا خرجت في مشوار من دارها. أو إذا كانت عائدة من مدرستها. وانقطعت الصلة بينهما يوم قرر سعادة اللواء الانتقال إلى مصر الجديدة. وباع الدار وذلك حتى يتزوج عباس أخوها الضابط بنت

مقاول. هكذا عرفت أمه. وفكرت علوية في الأمر وقالت لنفسها أنفق المال على بنت المقاول ولم يبق معها إلا سنة واحدة وتم طلاقهما. وسافر بعدها إلى بلاد العم سام بزعم أنه سيتعالج، وكان يهدف إلى أن يتعلم. صار طيف خيري يراودها، ولم تعرف عنه أي أخبار، بل تزوجت، وظل الطيف يلازمها، حتى وهي تمارس الجنس مع زوجها العليل، كان ذهنها يشرد إليه. كان الزوج مريضاً بالقلب، ورغم ذلك استطاع أن ينجب ثلاث بنات، ثم تدهورت حالته. ثم رحل. كانت ترفض ذلك الزواج منذ البداية، غير أن الأوامر العسكرية للواء حميدة كانت قد صدرت. غفر الله له. هل كنت تأملين أن يتقدم لك خيري؟ .. وكيف كان في إمكانه أن يعرف مكانك؟ ..

سمعت خيري يسألها:

- هل تزوجت يا علوية؟

أجابت: نعم . أنا الآن أرملة ولي ثلاث بنات.

قال: لا ادري ماذا أقول .. ما شاء الله .. أم أرثي لحالك.

قالت: لا .. أرث لحالي.

سألها: ولم لم تتزوجي أنت لا زلت صغيرة.

قالت: كبرت .. ألا ترى؟

قال: أبداً .. أنت لا زلت شباباً .. ألا ترين النضارة في عينيك؟ ..

أرادت أن تعلن له سنها، رغم أنه يعرفه، ويعرف أنه يكبرها بخمس سنوات، تعارفا وهو في السنة الأخيرة وهي في السنة

# الفصل الحادي والثلاثون

## محاصر في السويس

قال عبد الموجود متحسراً:

- تصور كل شيء كان عندي. أعرفه جيداً. لحظة أن طلب السادات السفير السوفيتي وأعلمه بأن الحرب بدأت .. وكنت أعرف في ذلك الوقت أن الجنود المصريين يقومون بتمثيلية تمويهية. يستريحون على الضفة. يدخنون السجائر. وبعضهم يشرب العصائر. ويسبح البعض الآخر في القناة وآخرون يزعمون أنهم يصطادون السمك.

قال هشام:

- وهل عرفت موعد الحرب؟

- نعم .. كنت أعرف أن الساعة الثانية بعد الظهر سوف نتحرك للقتال. بدأ الطيران المصري بقصف المواقع الإسرائيلية بعد خط بارليف. وفي العمق. وبدأت القوات البرية تعبر القناة. وأزاح الماء رمال خط بارليف بالموتورات. ولو أن على الجانب الجنوبي لشبه جزيرة سيناء كانت التربة طفلية. وكان من الصعب إزالة الحواجز لكننا قهرناها. وبنينا الجسور.

ثم توقف وسأل هشام:

- أتعرف؟ .. إن وحدات كوماندوز بالهليكوبتر أشعلت النيران في منشآت النفط في جنوب سيناء.

قال هشام مندهشا:

- معقول، أنا لم أسمع عن ذلك حتى الآن.

- هذه برقيات كانت تصل إليّ وأعرضها على رئيس الأركان. بل سمعت في ذلك الوقت أن سفير روسيا في مصر أبلغ السادات أن الأسد سوف يطلب وقف إطلاق النار على الفور، ونفى الأسد الكلام المنسوب إليه. ما مصلحة روسيا أن تكذب علينا؟ .. لعلها كانت تريد أن تدمرنا ثانية، ونبدأ في شراء سلاح منها لتجديد ما تم تدميره. بل قد نوقف إطلاق النار، بينما تستمر إسرائيل تلتهمنا كما تحاول الآن في الثغرة.

قال هشام ممتعضاً:

- يبدو أنها كانت تريد أن تنتقم من طرد الخبراء السوفيت من مصر.

قال عبد الموجود مرتعباً:

- آه .. لو تم طردهم أثناء تدريب مدحت أخي في روسيا .. ربما ...

قاطعهما إطلاق نار مفاجئ. وصاح منادي في الكتيبة: غارة .. غارة .. وفي الحال كان كل واحد منهما أمام مدفعه أو في مدرعته.. يصد هجوماً للدبابات تريد إسرائيل أن تنفذ به إلى مدينة السويس قادمة من الدفرسوار.

صرخ عبد الموجود:

- لا يزالون يمثلون دور الضحية وهم يحتلون أراضينا .. أضرب .. أضرب .. حتى ننتهي منهم.

تراجعت الدبابات الإسرائيلية من عنف الضربات المصرية.

ولما رجع هشام إلى خيمته، وجد عبد الموجود جالساً ساهما.

قال:

- لو استمر هذا الحصار فسوف نجوع بالفعل.

قال عبد الموجود يائساً:

- ربما نحن في وضع أخف من الجيش الثالث. بجانبنا الحقول وحواليهم الصحارى.

أضاف عبد الموجود قائلاً: تصور إن إيبان وزير خارجية إسرائيل قال إن مصر اخترعت معركة بحرية خيالية لسفن إسرائيلية خيالية في مكان خيالي وبتوقيت خيالي. والآن يبدو أن المعركة حقيقية والمكان معروف والتوقيت ليلاً. يريدوننا أن نقاتل بلا ضوء، ولا يعرفون كفاءة المقاتل المصري في الظلام.

سأل هشام: ألم يصلك أننا ضربنا بعضنا بعضاً.

هز عبد الموجود رأسه وقال: هذه أمور تحدث في كل حرب كانت هناك أربعة ألوية مصرية احتياطية تخبطت. وكانت نتيجة التخبط أن دُمرت أربعة دبابات بنيران المصريين. وذلك في الوقت الذي تقدمت فيه رؤوس الجسور المصرية حوالي ستة أميال إلى الأمام.

ثم همس عبد الموجود لهشام قائلاً:

- يوم عشرة من أكتوبر كان حاسماً بين وزير الدفاع ورئيس الأركان. أراد رئيس الأركان أن يبني طريقاً معبدة فوق القناة، ولكن وزير الدفاع رفض لأن السادات يريد أن يعيد الملاحة إلى

القناة. وها هو العدو يبني ذلك الجسر في نقطة قريبة من النقط التي كنا نخطط للبناء فيها في قطاع الدفرسوار.

قال هشام ساخراً:

– تناصر أنت رئيس الأركان السابق يا عبد الموجود.

قال عبد الموجود محتداً:

– ولم لا أناصره مادامت آراؤه صحيحة.

ثم أضاف: ألم يقف ضد الهجوم على ممرات سيناء من أجل تخفيف الضغط على الجولان. وهكذا حرك قوات من الاحتياط الاستراتيجي إلى الضفة الشرقية للقناة. وناصر السادات وزير الدفاع، وأصر رئيس الأركان على رأيه. وهنا يمكن أن نقف فقد تم نقلي بعد ذلك ويومها توقف شهريار عن إذاعة الكلام المباح حتى الصباح، لأنه لا يعرف بعد ذلك ما حدث غير أنه محاصر في السويس. وحينما يأتي الصباح لن يتكلم شهريار عن شيء مضى إنما عن شيء يأتي.

- أتريد أن تقيس نبضي يا دكتور؟

قال مبتسماً:

- لو سمحت؟

استمر في مداعبته:

- أتريد يدي اليمني أم اليسرى؟ ..

- أريد يدك التي تقع على الشمال ... لو سمحت.

وأدركن دعابته لأنه فقد الذراع اليمنى. وقال الطبيب:

- لو كانت الإصابة في الذراع اليسرى، لكنت الآن مع الرفيق الأعلى .. لأنها بجانب القلب. لولا أن الله ستر واسترد أمانته اليمنى.

قال مدحت: ونعم بالله ..

ولما قاس النبض، ثم حاول أن يقيس الضغط، والممرضة تحمل له الجهاز، فأفسحن لهما الطريق. ولما انتهي الطبيب قال:

- عال .. عال .. لا يبقى إلا أن يلتئم الجرح، وتخرج من المستشفى.

قالت عالية تسأله:

- ومتى يلتئم الجرح يا دكتور؟

قطع مدحت عليه الإجابة قائلا:

- إنها هي الأخرى طبيبة .. ولو أنها طبيبة أطفال.

قال الدكتور ضاحكاً:

- إذاً انتظرينا حتى نبلغ الستين، فالإنسان بتقدم العمر يعود طفلاً.

ضحكن جميعاً، وابتسم مدحت وهو يقول:

- لو كان لنا عمر.

ربتت عالية على يده وهي تقول:

- عمر مديد بإذن الله.

ولما نوين أن يتركوه عدن من جديد إلى القبل. وأحس لأول مرة أن عالية تطبع قبلتها بعمق على خده. استغرقت القبلة وقتاً طويلاً. هل من الممكن أن تغرم امرأة برجل فقد ذراعه؟ ..

- أتريد أن تقيس نبضي يا دكتور؟

قال مبتسماً:

- لو سمحت؟

استمر في مداعبته:

- أتريد يدي اليمنى أم اليسرى؟ ..

- أريد يدك التي تقع على الشمال ... لو سمحت.

وأدركن دعابته لأنه فقد الذراع اليمنى. وقال الطبيب:

- لو كانت الإصابة في الذراع اليسرى. لكنت الآن مع الرفيق الأعلى .. لأنها بجانب القلب. لولا أن الله ستر واسترد أمانته اليمنى.

قال مدحت: ونعم بالله ..

ولما قاس النبض، ثم حاول أن يقيس الضغط، والممرضة تحمل له الجهاز، فأفسحن لهما الطريق. ولما انتهي الطبيب قال:

- عال .. عال .. لا يبقى إلا أن يلتئم الجرح، وتخرج من المستشفى.

قالت عالية تسأله:

- ومتى يلتئم الجرح يا دكتور؟

قطع مدحت عليه الإجابة قائلا:

- إنها هي الأخرى طبيبة .. ولو أنها طبيبة أطفال.

قال الدكتور ضاحكاً:

- إذاً انتظرينا حتى نبلغ الستين، فالإنسان بتقدم العمر يعود طفلاً.

ضحكن جميعاً، وابتسم مدحت وهو يقول:

- لو كان لنا عمر.

ربتت عالية على يده وهي تقول:

- عمر مديد بإذن الله.

ولما نوين أن يتركوه عدن من جديد إلى القبل. وأحس لأول مرة أن عالية تطبع قبلتها بعمق على خده. استغرقت القبلة وقتاً طويلاً. هل من الممكن أن تغرم امرأة برجل فقد ذراعه؟ ..

# الفصل الثالث والثلاثون

## عودة مليونير أمريكا

لم يستقبله في المطار هذه المرة، غير أخته أميمة وزوجها صفوت، كأنه جاء في زيارة سرية. فقد أتصل بها هاتفياً وأنبأها أنه آت، ولا تخبر أحداً لتكون مفاجأة للجميع. فسألته أن تنظف له شقته، فأجاب أن لا داعي لذلك، لأنه سوف ينزل بفندق خمسة نجوم.

استقبلته وزوجها في المطار، وشعر بامتعاض. إنه لا يقبل هذا الرجل ولا يستسيغه، ولا يعرف السبب. قد يكون لأنه فقير، وقد يكون لأنه ينافسه على لقب الدكتوراه. يريد أن يكون الوحيد في العائلة الذي يحمل الدكتوراه. أو لعله يمقته لأنه ساخر وذكي ولماح، وهو يريد أن يكون الساخر الوحيد واللماح والذكي بين أفراد العائلة الكبيرة.

سخر منه، وهو يقول، وهو يمشي وراء صفوت يقود عربة الحقائب أمامه:

- هل سنركب ليموزين؟

قال: لا ..

وابتسمت أميمة وهي تقول: لقد اشترى سيارة بعد أن ورث أمه وأباه في سنتين متتاليتين.

قال صفوت، وهو يشير إلى السيارة، وقد دنوا منها: ها هي السيارة تقف في الموقف هناك.

قال الدكتور عباس: ظننتها مرسيدس.

وهمس لنفسه: "الولد لم يعد فقيراً".

قال صفوت: حمارتك العرجاء ولا سؤال اللئيم.

أمتعض الدكتور عباس من التعبير كأنما أعتقد أن الكلام موجه إليه فسأله: ومن هو اللئيم؟ ..

قال صفوت ببساطة كأنما يعرف الإجابة من قبل: إنه سائق سيارة الأجرة الجشع.

هز رأسه كأنما أقتنع.

جلس بجانب صفوت في المقدمة، وأميمة جالسة خلفه تسأل عن كرستينا والولد والبنت. يقول الدكتور عباس: إنهما يكبران يا اميمة.

سألت: ولم لم تحضرهما معك؟ ..

قال: المدرسة من ناحية. وشغل كرستينا من ناحية أخرى.

قال صفوت متهكما، ولا يدري لم يسخر كثيراً: وربما قيمة التذاكر.

أحتد الدكتور عباس، وهو يقول: أنت ستسخر يا سي صفوت. أنا أشتري هذه البلدة بأكملها.

قال صفوت: أعرف يا دكتور .. اعرف .. لكن من سيبيعها لك؟ ..

قال الدكتور عباس وهو دائما يشكوه لأخته: أنظري يا أميمة .. من يخلق المشاجرة مع الآخر؟ ..

قالت أميمة مبتسمة: هدئي اللعب يا قطة ..

إنه يمقت هذا الصفوت، ولو أنه يعامله بدبلوماسية من أجل خاطر أخته، وهو يكره الأخر زوج صفية المدعو معتز. الأول

ساخر دائماً، والثاني متمسك بالتقاليد والدين، ولو أنه في الباطن - على ما يبدو - لا يتمسك بشيء. وهو يعتبره منافقاً وهو يكره المنافقين. ألم تكن تنافق المشير؟ .. ذلك كان زمناً مضى.

لم يكن صفوت يرغب في لقاء الدكتور عباس. كان لا يقبل تعاليه على خلق الله. لكن من أجل عيني زوجه أميمه قبل أن يستقبله في المطار. هناك حاجز يقف بينهما. يشعر بغصة حينما يلتقي به. وقد كان لوداد موقف ضده من قبل برفضها المستمر مقابلته إلا لماماً، لكن مثل هذا الموقف - بين العائلات - يعتبره صفوت موقفاً غير أخلاقي. لا مانع أن يقابله، ويجامله، ويشد على يده، ويبارك نجاحاته، ويحتضنه، ويقبله، ولا يعرف كيف يفلت لسانه بالسخرية فجأة رغما عنه، أهذا استهزاء بتعاليه عليه؟ .. وهو لا يسخر إلا حينما يجد الدكتور يفلت برأي لا يروقه، لذلك ينبري مداعباً، وفيما عدا ذلك فيبقى صامتاً يرد بمقدار السؤال. وما أكثر شطحات الدكتور! .. وما أكثر تعليقات صفوت الساخرة؟! .. ويسأل إذا اقتضى الأمر، ولو أنه يعرف مقدماً أن الدكتور سوف يستفسر قائلاً: لماذا تسأل؟ .. يذكر يوماً أن سأله: إلى أين يا دكتور؟ .. فقال له: لم تسأل؟ .. فبلع غصة وضحك ساخراً: أصل الحقيقة أنني عُينت رقيباً عليك. فرماه بنظرة من عينيه الواسعتين الخضراوين مثل عيني أخته علوية، وابتسم كأنما صفوت قال نكتة.

ولا يجد صفوت أسباباً لهذا الحاجز، غير تعالي الدكتور على الخلق، ومطالبته الدائمة للآخرين بالتواضع المهين كأنه صنف راق من البشر يخر له الناس راكعين.

عادة ما تتدخل أميمة غاضبة، وتقول له:

- ألن تكف عن مداعباتك الجارحة يا صفوت؟

- ماذا قلت حتى توجهي إليّ هذا السؤال؟ ..

- ألا تدري؟

- خفف .. خفف الوقع .. يا صفوت.

- ماذا تريدين أن أسجد له وأركع وأسبح بحمده؟

- لم أقل ذلك! ..

- أنا أتحاشاه لكن لا أستطيع أن اسكت إذا سمعت عوجاً .. أو سخرية مني .. أو إهانة لي.

وطلب منهما أن يذهبا به إلى فندق شيراتون بالدقي، حيث أنه حجز جناحا بالفاكس من لوس أنجلوس.

فكر صفوت كيف يصل بالسيارة من المطار إلى الفندق. إنه لا يمكن أن يدخل من طريق النهر، لأن السادات منع الناس من دخوله، بعد أن سكن في قصر على النيل. وإذا دخل من تحت النفق، فيجب أن يأخذ حذره وهو يستدير ليقف أمام الفندق. وينزل ليستخرج حقائب الدكتور من حقيبة السيارة، ومن جانب أميمة حقيبة أخرى؟ لم كل هذه الحقائب؟ .. يبدو أنه يرتدي في كل يوم بذلتين وقميص في الصباح وآخر في المساء. غير الملابس الداخلية التي يغيرها صباحاً وظهراً ومساء .. إنه مليونير قادم من أمريكا عاد إلى بلده.

# الفصل الرابع والثلاثون

## الدوكة

طرقت عالية الباب، ودخلت الحجرة، فرأتها تغوص في الظلام، فجاست فيها حتى وصلت إلى الشباك ففتحته. قالت ضاحكة: لم تعمل السينما بعد حتى تُطفأ الأنوار. دخل هواء يناير البارد شديداً، فقفلت الزجاج، وانتشر النور في الحجرة، والتفتت إلى الجالس على مقعد هزاز في الظلام يتأمل، بعد أن غادر المستشفى. وأحيل إلى التقاعد برتبة مقدم، وحصل على نيشان، ومعاش ومعاش عجز جزئي، واستسلم ليأس مقيت. وجده يزحف إليه، ويغزوه فانحنى له وجعله يغمره.

لم يبد منه اعتراض على تسلل الأضواء إلى الحجرة، فعالية صديقته منذ الصغر، وطالما كانا يلعبان معاً، ويذكر أيام كانا يسبحان معاً في بحر الإسكندرية، ويتكلمان كثيراً معاً. كان وقتها مراهقاً يشتهي جسدها، ويتطلع إلى مداعباتها البريئة، لكن زواجها قطع العلاقة بينهما وقصمها، فخرت محطمة. وتباعدا بعد عودتها مهزومة من رجل نصاب لم تره مرة ثانية وليس لديها شهية في مقابلة أحد.

جلست بالقرب منه، وهي تقول:

- جئت اليوم أخطبك.

أندهش مدحت وقال:

- هل انقلب الحال؟ ..

قالت عالية بثقة:

- لأتزوجك.

- ومتى تعتقدين بعد الخطبة؟ ..

- يمكن أن تُفسخ! ..

- ومن من سوف تخطبيني؟ ..

- من والدك .. خالي.

- وهل أنا قاصر يا عالية؟ ..

- إذاً فسوف أخطبك من نفسك.

- هكذا يكون الأمر مقبولاً

- هو زواج مصلحة لا شك فيه. لا أقول إنني غارقة في حبك، ولو أني أحبك بالفعل. لذلك أريد أن أنتشلك من هذا الظلام الذي تتنفسه ليلاً نهاراً. وأنت تنتشلني من العنوسة. إذ مر الآن على زواجي السابق دهراً ولم أتزوج. وتقدم إليّ طماعون وكذابون و .. و .. ومن ناحية أخرى حصلت على عقد للعمل في مستشفى بمكة المكرمة. وأريد أن تكون حرماً محرماً ليّ فما رأيك؟

قال وقد عاوده مرحه السابق الذي أفتقده:

- في مثل هذه الأحوال يقول العريس للعروس .. اتركيني أفكر.

قاطعته وهي تقول:

- أريد منك أن تعرف شيئاً عني. إنني لا أنجب. من الصعب أن أنجب لأن جدار الرحم لدي ضعيف لا يقوى على حمل الأجنة، لذلك لا تنتظر مني أن انجب لك طفلاً.

قال مدحت ضاحكا:

- للأسف أنا أعرف كل شيء عنك. وأنت لا تدرين. إن أمي تحكي الحكاية أكثر من مرة وتحكي حكايات فوق حكايات لدرجة إنني فكرت أن أكتبها وأهدي الكتاب إلى أمي. تريد المسكينة أن تخرجني - مثلك - من حالة تظن أنني أعاني منها.

- وهل هي على خطأ؟ .. لقد ضبطك تجلس في حجرة مظلمة لا تدخلها الشمس ولا يتطرق إليها النور.

- إنها تظن أن اليأس أصابني في مقتل بسبب بتر ذراعي. لكني كنت أفكر فقط في الموقف الذي حدث فيه الانفجار بمداهمة بعض القوات الإسرائيلية لموقع الصواريخ الذي كنت أديره. إن ثغرة الدفرسوار عاملناها باستهانة فلما تفاقمت بدأنا نظهر بطولاتنا لكن بعد أن سقط منا الشهداء والجرحي والمصابون. وكان يمكن بقليل من الجرحى أن نتفادى ذلك كله بوضع جيش رابع بين الثاني والثالث على الضفة الغربية يسد الثغرة بين الجيشين. ولكن الانفراد بالرأي مرض خطير، وفي الحروب مهلكة ليس بعدها مهلكة.

- يا سيدي كل شيء أنتهي، تم عقد الاتفاق بين الجانب الإسرائيلي وبيننا. وتم التوصل إلى اتفاقية لإطلاق سراح أسرى الحرب وتحت أشراف الأمم المتحدة ثم تم إمداد الجيش الثالث بما يلزمه. على العموم لا تأخذني في دوكة وتفلت من الإجابة. لكن صحيح ما معني دوكة؟

قال مدحت: انتظري حتى أبحثها لك عنها في القاموس.

- إنها كلمة غير عربية على ما اعتقد.

فتح قاموسا أحمر اللون صغير "المعجم الوجيز" وقد أخذ يبحث عن كلمة دوكة. ثم صرخ وهو يقول:

– وجدتها وجدتها .. داك الطيب والشيء دوكاً سحقه. وبالغ في سحقه. وداك صحنه ودقه. الدوكة. يقال وقعوا في دوكة: شر وخصومة. المداك ما يسحق عليه. والمدوك: ما يسحق الطيب و(ج) مداوك.

– حقيقة تريد أن تأخذني في دوكة يا مدحت واعتقد أنها باللهجة العامية دوامة. ولا ترد على سؤالي. أيرضيك أن أبحث عن زوج ليس قريباً مني ولا يعطف عليّ ولا يخلص لي؟ ..

نظر إليها متأملاً ثم سأل:

– وماذا سيكون عملي هناك .. زوج فقط؟! ..

سألته بتهكم:

– وما هو عملك هنا .. ابن فقط؟ ..

ضحك وضحكت. واستغرقا في الضحك.

# الفصل الخامس والثلاثون

## نحن هنا

بدأ الدكتور عباس يومه في الثانية والنصف، إذ يحتاج لفترة قد يكون مقدارها أسبوعاً حتى يتمكن من أن يغير من الساعة البيولوجية في صدره. تلك التي توقظه الساعة السابعة بتوقيت لوس انجلوس حيث تكون الساعة في مصر قبل منتصف الليل بكثير، فالنهار هناك ليل هنا.

وقرر أن يزور أصدقاء السلاح وزملاء العلم، وبدأ ليلاً بزيارة نائب الجيش الثالث العائد من الحصار. وأخذ عبد الخالق في حضنه، وطفق يقبله باستمتاع، ويقول له: حمداً على سلامتك .. حمداً على سلامتك. قال عبد الخالق: الموقف كان رهيباً. لم يكن رهيباً عليّ فقط إنما كان أيضا على الجنود. كان الجنود جوعى من أثر الحصار لكنهم كانوا لا يبالون ولا يشتكون، والوضع يثير الرعب في النفوس، حينما يفكر الإنسان أنه قد يموت بسبب الجوع. لا يمكن أن نتقدم ونصل مثلاً إلى شرم الشيخ وليس هناك أوامر، وهناك قد نجد مأكلاً وملبساً رغم الحامية الإسرائيلية هناك لكن الوضع يتطلب الصراع العسكري معهم فكيف يتصارع جندي جوعان مع جندي معلوف. ولا يمكن أن نتقهقر لأن العدو أفتعل الثغرة واصبح من الضروري مواجهته. كانت الثغرة قد تفشت فلم يكن من السهل لمها. لقد كنا نجد عنتاً من القوات الإسرائيلية في وصول الطعام إلينا من الضفة الغربية. وأنظر ماذا فعلت إسرائيل حينما قررت الأمم المتحدة أن تلقي الطعام إلينا.

قال الدكتور عباس: المهم حمداً على السلامة.

سأل عبد الخالق: ولم لم تحضر معك الأولاد وكرستينا.

قال: أبداً .. المدارس .. وعمل كرستينا. لقد أصبحت مديرة مؤسسة كبيرة هناك.

سأل عبد الخالق: هل جئت في زيارة فقط؟

قال: بل عمل. إنني على وشك أن أبني فندقاً خمسة نجوم في القاهرة بتمويل خليجي. وجئت وسيلحق بي الأمير الممول لشراء قطعة الأرض وسنأخذ تصريح بالبناء ونبدأ العمل.

يمكن أن يقول الدكتور عباس أسراره للغرباء عنه، أما الأقرباء فعادة ما يرفض التصريح لهم. وقد سألته أخته أميمة من قبل هامسة: جئت إلى مصر في مهمة؟ .. أجاب باقتضاب: وحشتوني. بينما صفوت يتلقف الكلمة ويقول لنفسه وهو يغني: وحشتوني وحشتوني .. وحشتوا عيوني.

زار الدكتور جمال وهنأه بمنصب مدير مكتب الوزير. وعودته من الكويت ظافراً. وكان على اتصال دائم به من أمريكا ويعرف أخباره أولاً بأول. وقدمت شاهنده الحلويات كعادتها. وتذوق منها الدكتور عباس الكثير. ثم امتنع فجأة عن الأكل كأنما تنبه إلى نفسه وقال: لقد تضخمت وسأصبح كالفيل لو استمررت آكل أشهى المأكولات. قالت شاهنده: أكثر الله خيرك يا دكتور.

وزار صديقه لبيب. وانبسط فعلاً حينما عرف أن ابنته المغولية أصبحت الآن هادئة. وأن كثيراً من الحب والحنان والعطف آلان هذه القردة الشرسة.

وأنتظر أياماً حتى سمع رنين الهاتف في حجرته، والأمير خالد يقول له: نحن هنا.

قال عباس كأنما يتعمد أن يقول: أهلاً يا خالد.

لم يكن يناديه بالأمير، حتى لا تحدث فجوة بينهما، فهو أستاذه، وهو سيظل تلميذه. وسمعه يقول: نريد أن نتذوق الأكل المصري يا دكتور عباس.

قال عباس: على العين والرأس .. أنت غال عندنا يا خالد.

تذكر عباس المائدة العامرة التي دعاه إليها والد الأمير. وكانت تعج بلحم الغزال والخراف والدجاج والأرز بطبيعة الحال الممزوج بالزبيب واللوز والبيض. غير أنه لم يكن مدعواً وحده. كان الحضور عشرات من وجهاء الخليج. وكان الأمير خالد فرحا محتفياً به. وعرض يومها على الأمير الكبير دراسة جدوى لبناء فندق في أمريكا اللاتينية قام بها الدكتور عباس فأعجب بها الأب. وكان رأي الدكتور عباس أن الأمر كله متوقف على إيجاد الأرض في موقع هام وتصريح السلطات المصرية بالبناء. أما الأرض فهو يعرف سمساراً في منطقة الأهرام سوف يساعده على إيجادها أما التصريح فإن أصدقاءه كثيرون في شئون الاستثمار الدولي. وطمأن الشيخ أن التكاليف لن تتجاوز أربعين مليون دولار. أدار الدكتور عباس قرص الهاتف وقال:

- أهلاً يا أومة.

- أهلاً يا دكتور.

اعتادت أن تناديه دكتور وكانت تناديه "يا أبيه" في الماضي لكنها عدلت عن المناداة بعد حصوله على لقب الدكتور احتراماً له وهيبة منه.

- كيف الصحة؟ .

- الحمد لله .. هل نمت مستريحاً؟ ..

- نعم .. نعم ..

- كنت أود أن تدخل شقتك المهجورة وتعمرها.

يا سيدتي .. لا تهتمي. إن الفندق الذي نزلت فيه موقعه استراتيجي. سوف أقابل فيه بعض رجال الأعمال. وفي البيت سوف أكون وحدي فكيف يتسنى لي أن أخدمهم. شاي. قهوة. عصير. المهم أنا أطلبك لتعدي لنا غداء يليق بأمير خليجي.

- أمير خليجي.

ضحك الدكتور عباس وراح يقهقه وهو يقول:

- لا تخافي من التكاليف .. كلها على حسابي.

- أنا لا أخاف من التكاليف .. أخاف من الجهد.

- يا سيدتي الفاضلة .. استأجري طباخاً.

- لا أعرف طباخاً ماهراً.

- ألا يعرف زوجك الخائب طباخاً؟

تتقبل منه أن يهين زوجها، ولا تستطيع أن تتعانف معه، حبها له يمنعها من أن تتشاجر. أسرعت بطلب صفوت في العمل، وسألته:

- يريد الدكتور عباس أن نقيم حفلة غداء لأمير خليجي .. ألا تعرف طباخاً؟

- طباخ .. دعيني أسأل لك .. على العين والرأس. من أجل عيني الدكتور عباس.

خرج من مكتبه مهموماً، وتوجه إلى ساعي الوزير وسأله: ألا تعرف طباخاً يا عبده؟

ابتسم الوجه الأسود، فظهرت أسنان لؤلؤية نضرة تضوي في وجهه، وقال: أنا طباخ ماهر يا دكتور صفوت؟..

لم يكن قد حصل على الدكتوراه بعد، لكن الموظفين والسعاة وكل إنسان يقابله يناديه بالدكتور، اكتسب اللقب منذ عرف الناس أنه يحضر للدكتوراه، ولو أن الدكتور المشرف لم يغدق عليه باللقب بعد، يماطل في منحه تأشيرة طبع الرسالة للمناقشة، رغم أن الدكتوراه ترقد في بيته كاملة منذ شهور. وحينما يسأله الآخرون متى تناقش الرسالة؟ .. يقول: أصل الدكتور من دمياط. فهو بخيل، يبخل على أي طالب أن يحصل على الدكتوراه عن طريقه.

قال صفوت لعبده: إذاً يمكنك أن تقيم احتفالاً لأمير خليجي.

قال عبده متأكداً: كل الأصناف ستكون معدة على المائدة من الخضار إلى اللحمة إلى البط إلى الحمام إلى الأرز إلى البفتيك .. والريش. بل سأصنع لك الحلويات .. وأم علي على رأسها.

قال صفوت منبهراً: عال .. عال .. ومتى ستكون جاهزاً؟

قال عبده: وقتما تشاء.

قال صفوت: إذاً أنتظر أن أخبرك باليوم لتستعد.

طلب أميمة هاتفياً وقال لها: وجدت الطباخ حددي يوم الحفلة.

أدارت قرص الهاتف وسألت عن الدكتور عباس. قال مستقبل المكالمة: هاتفه مشغول. وبعد ساعة طلبت ثانية فقال لها: لقد غادر الفندق.

قالت: أبلغه حينما يأتي أن يكلم أخته الصغرى لأمر هام لو سمحت.

# الفصل السادس والثلاثون

## أم علي

كان الدكتور عباس قد التقى في الطائرة أثناء عودته إلى مصر بأحد المستشارين القانونيين الدوليين. تعارفا في الطائرة بسبب تجاور كرسيهما في الدرجة الأولى. عماد البابلي. دكتور عباس حميدة. وقد أفاض الأول في تاريخ حياته القانونية، فقد كان نائباً في مجلس الدولة، وبعد حادثة ضرب عبد الرزاق السنهوري باشا، وتطاول العمال عليه، استقال عماد البابلي في ذلك الحين. فقد عرف أن لا كرامة للقضاء في ذلك العهد. غير أنه اشتغل بالشئون القانونية. فتح بالفعل مكتباً للمحاماة، ولكنه لم يقيد اسمه في نقابة المحامين، واشتغل بالمكتب عدد من المحامين النبهاء من زملائه أو من تلاميذه. وهم الذين تخرجوا معه أو بعده بسنوات قليلة. وللأسف لا يعمل داخل مصر في القضايا العادية إنما يعمل في المجال الدولي: مجال التحكيم الدولي .. العقود الدولية .. الشركات متعددة الجنسية. وفي غير ذلك مما يمس دول مختلفة في وقت واحد. وهنا صافحه الدكتور عباس وقال له: إنني سأحتاج إليك كثيراً، فأنا أستاذ في جامعة لوس أنجلوس، ولي شركة تصدير واستيراد دولية. وفي نفس الوقت أبرم عقوداً لدراسات الجدوى لمشروعات هامة عبر القارات. وجئت إلى القاهرة لأجري دراسة جدوى لبناء فندق لأمير خليجي. قال عماد البابلي: إن مكتبي وزملائي كلهم تحت أمرك يا دكتور. ولو أردت أن يكون لك مقر في هذا المكتب فليس لدي مانع.

التقت الأرواح بدون مقدمات وتوثقت العلاقات بقلوب مفتوحة فجأة. وقال الدكتور عباس يحدث نفسه: كل الأرواح تلتقي بي وتهفو إليّ فيما عدا أرواح عائلتي. لعلهم يحسدونني على ما أنا فيه. وراح يخاطب نفسه قائلاً: أنت تكره عائلتك لذلك تظن أنهم يحسدونك. كرهتهم يوم أن أبدوا اعتراضاً على بيع الوالد دار درب سعادة. كيف يقفون في طريق صاحب المعالي الذكي الوحيد في العائلة. إنك حتى لم تفكر أن تحمل لكل واحد منهم هدية رمزية يتذكرك بها. مثل هذه الأعمال بطلت في أمريكا ولم أعد أذكرها .. يا رجل ألم تكن تكلف صفية بشراء هدايا لك على حسابك لأحبابك في أمريكا وأنت منطلق إليها. معقول يا دكتور اثنان وثلاثون سنة في مصر وتنسى كل شيء خلال تسع سنوات في أمريكا. ستة للدكتوراه وثلاث للعمل.

حينما تحتد المناقشة بين الدكتور ونفسه يقفل أبوابها فجأة، وينشغل بأي شيء. وفي ذلك الوقت استمع إلى محدثه البارع عماد البابلي وهو يحكي قصصاً عجيبة قانونية الطبع. تشد من يستمع إليها، فتبعده عن انفعالاته النفسية.

كان مكتب عماد البابلي يقع في شارع صبري أبو علم .. في إحدى العمارات القديمة المتينة. ومصعدها كان مثلها قديماً لكنه يشتغل كرجل عجوز يعمل بهمة متوسطة. بيد أنه يساعد على الوصول إلى الدور الثالث بعد لأي. ومكتب عماد البابلي مؤثث بأفخر الأثاث وبه حجرات استقبال رائعة ومكاتب فخمة. لم يكن عماد البابلي ينحدر من أسرة مكافحة، كان والده من أثرياء الصعيد

القادرين على تحويل التراب تبراً، لذلك لم يكن في استقالته من مجلس الدولة أي تأثير مالي على إمكاناته المادية.

سأله: هل الدكتور متزوج؟

أجاب عباس: نعم .. ولي بنت وولد.

- ولم لم يأتوا معك؟ .

في المدارس .. وزوجي تعمل ومرتبطة بظروف عملها. وأنت يا دكتور عماد هل أنت متزوج؟

- أنا أولاً لست دكتوراً .. يمكن أن تقول لي إنني حاصل على دبلومتين عاليتين في القانون: العام والخاص. وكان ذلك من شروط العمل في مجلس الدولة لكني توقفت عن الدراسة وتفرغت لعملي القانوني. وعلى العموم يا سيدي أنا متزوج ولم أرزق بأطفال حتى الآن.

- هل مر زمن على زواجك؟

- نعم .. يمكن أن نقول إنها أربع عشرة سنة.

- ربنا يرزقك يا أستاذ عماد.

قال عماد: ما رأيك لو تفضلت عندي اليوم على الغداء؟

قال عباس: لا .. اسمح لي .. إنني قد أعددت وليمة للأمير خالد صاحب المشروع الذي كلمتك عنه في الطائرة في منزلي اليوم.

قال عماد: على العموم حدد لنا يوماً آخر تزورنا فيه .. ونتغدى معاً.

- وهو كذلك.

فوجئ الدكتور عباس بالمائدة الحافلة في منزل أخته أميمة. استغرب مهارة الطباخ الذي جلبه صفوت. اسمه عبده. انبهر به الأمير خالد وبالمائدة التي أعدها لدرجة انه سأل عبده، وهو يقوم بتقديم "أم على" على المائدة:

- كم سنة وأنت تعمل طباخاً يا علي؟

- اسمي عبده يا سمو الأمير.

- يا عبده.

- حوالي خمس عشرة سنة تقريباً. عملت زمناً في الخليج. وزمناً آخر في لبنان. بل سافرت إلى فرنسا وعملت هناك.

- ما رأيك لو عملت في قصر أبي في الخليج؟

- أنا طوع أمرك يا سمو الأمير.

كان على المائدة يجلس صفوت صامتاً. لم يشأ أن يتدخل أو يجادل مع الدكتور عباس، أو يلقي بسخرياته عليه احتراماً لوجود الضيف. وكانت أميمة مرتهبة من حدوث صدامات بينهما. لكن وجدت أن زوجها متحفظ في كلامه حذر في جلسته.

كان صفوت جالساً يملؤه الإعجاب بذلك الساعي الطباخ. ذو الوجه الأسود والشفتان الغليظتان والأسنان اللؤلؤية وذلك الجسد الرياضي والطول الفارع. وكان منبهراً أيضاً من أنه يؤدي وظيفته بإتقان، فقد أرتدى ملابس "السفرجي" بعد أن أعد الطعام وبدأ يقدمه بمهارة. والتهم الأمير أم علي، وهي ساخنة، وهو يقول: لذيذة. أول مرة آكلها.

قالت أميمة: سيكون عندكم بعد أيام .. اطلب منه أن يعدها لك كل يوم.

وقال الأمير خالد: أعط بياناتك للأستاذ صفوت .. وسوف أقوم باتخاذ إجراءات سفرك.

أنحنى وانصرف وهو يقول: وهو كذلك.

أشادوا به لما رفض المساومة على أجرته، أو المطالبة بمزيد على ما أُعطي. ولما وقع العقد لم يناقشه قبل الموافقة. كان يبدو رجلاً خلوقاً معتزاً بنفسه وكرامته. تمكن الأمير من استخراج التأشيرة في ظرف أيام. لكن عبده تعطل قليلاً عند السفر. فقد كان الوزير لا يقبل أن يستغني عنه، ولما قابله وطلب منه ألا يقف في طريق رزقه، أمر الوزير مدير مكتبه أن يسهل له إجراءات السفر. وجاء عبده إلى صفوت، يشكره على الوظيفة الجديدة، فتمنى له حظاً سعيداً.

# الفصل السابع والثلاثون

## الذراع المبتورة

حفلة بسيطة، تم فيها عقد قران عالية على المقدم متقاعد مدحت عبد السميع حميده. أقتصر الحفل على الأقارب فقط.

حضر العقيد منصور الضابط البحري، الذي أشترك في حصار باب المندب. وانتهي حصار القوات البحرية المصرية وعاد إلى الإسكندرية، بعد أن عقدت إسرائيل ومصر اتفاقاً بالانسحاب الأول من الضفة الغربية وتقدم الجيش المصري ثلاثين كيلو متر إلى الأمام في صحراء سيناء. وكان قد وصل إلي الكليو السابع عشر. وصحبت سيادة العقيد زوجه وأولاده.

حضر الدكتور عباس، وهو يبدو مزهواً بنفسه، إذ استطاع أخيراً أن يجد قطعة أرض مساحتها ألف متر سوف يقيم عليها الفندق الموعود، تقع عند أول الطريق الصحراوي القاهرة – الإسكندرية.

وحضرت أميمة، والدكتور صفوت باعتبار ما سيكون، وقد بدا على وجهه البشر والزهو، فعما قريب سوف يناقش رسالة الدكتوراه، حصل على تأشيرة طبع الرسالة، وهو ينتظر أن ينتهي طبعها لتناقش، وقد همس له بعض الذين تخرجوا على يد الدكتور المشرف بأنه لا يقف في صف الطالب المشرف عليه أثناء مناقشة الرسالة، ويحاول أن يحرجه كثيراً. هكذا دلت التجارب ورددها

أمامه زملاؤه السابقون. ولكنه في النهاية سيحصل عليها مادامت قد تمت الموافقة على طبعها. وصحبهما ولداهما إلى الحفل.

كما حضرت صفية وأبنها وزوجها معتز تلكأ، فلم يحضر بصحبتهما، بل كان لا ينوي أن يحضر على أساس انه لا يهضم هذه العائلة. ولما جاء جلس يضحك مع ضباط العائلة وينعي عليهم ما حدث في الثغرة، وعبد السميع يفند أقاويله على أساس أن الثغرات تحدث في كل الحروب، بسبب أن نيران الجيش الثاني يجب ألا توجه إلى نيران الجيش الثالث، مما يسمح للجيش المعادي أن يخترق المنطقة المحايدة ..

وحضر من الجبهة عبد الموجود ومجاهد واحتضنا أخاهما حضنا عميقاً. وانفطرت دموعهم لانفصالهم عن بعضهم البعض هذا الانفصال الإجباري. وكانوا يبكون ما أصاب مدحت من بتر الذراع لكنهم لا يعلنون. ودخلا إلى حجرتيهما لتغيير ملابسهما حتى تليق بأجواء العرس.

وكان العريس يجلس في حجرة استقبال العائلة. تلك الحجرة الواسعة ذات المقاعد المذهبة. وبالقرب منه جلست كاميليا وزوجها وأمها علوية وأم العريس رئيفة. ولم تكن وفاء حاضرة بسبب سفرها عائدة إلى أرض زوجها بالكويت. ولم يكن من الممكن أن تبقى حتى بعد أن عرفت أن مدحت أقتنع بالزيجة.

كما جاء عبد الغني يصحب زوجته الرسمية الآن مشيرة، وحضر معه أولاده الثلاثة، وتخلفت وداد لأنها أدركت أن مليونير أمريكا سيكون من ضمن المدعوين. وكانت بواكير الحمل تظهر على مشيرة بعد علاج دام طويلاً.

كان مدحت يفكر: ماذا أفعل؟ .. هل كنت لأرفض هذا الزواج؟ .. إن عالية حلوة وخفيفة الظل ولديها شهادة عالية بل تحضر للدكتوراه. وعلى وشك أن تناقشها. حقاً تكبرني بأربع سنوات لكن ما دُمت رجلاً فلن تستطيع امرأة أن تقهرني. ثم إن الدين يأمرنا بالرحمة والمودة فما المانع من الزواج من ذات الدين والمال. سيكون لديها مال وفير، ومرتبي هنا يُدخر. حينما أعود ستكون لدي ثروة لا بأس بها تعوضني شيئاً مما ضاع. كل مهمتي الآن أن أكون زوجاً، ولو لم أرض بهذا الزواج لكنت حتى الآن لازلت أعزب. لا أهمية لأن تنجب. هل تخجل أن يشاهدك أولادك مقطوع الذراع؟ .. لا .. هذا وسام أتحلى به، فكيف اخجل منه؟ كنت أدافع عن وطني وقطعت ذارعي فما في ذلك؟ .. لم أكن مثلاً أسرق فرمتني الشرطة برصاصة جرحت كتفي جرحاً بالغاً فتم قطع ذراعي. ولكن هل ستنجب عالية؟ .. إنها كما تقول ضعيفة الرحم ولن يتسنى أن ترى طفلاً زهاء تسعة شهور أو حتى سبعة فلم أعول عليه منذ الآن؟ .. يكفي أنها كانت صريحة معي. لعلي أقضي وقتي كله بعد خروجها إلى العمل أمام التلفاز، أو أقرأ في كتاب الله مثل أبي. ولم لا أذهب إلى الحرم الشريف، وأقرأ هناك أمام الكعبة الشريفة. وأصلي الفجر والظهر. وقد أتغدى معها وأعود لأصلي العصر والمغرب والعشاء. وحينما أعود سوف أجدها هناك. بيضاء مثل خالتي. ولو أن عينيها عسليتان، لكنهما واسعتان نجلاوان مثلها. وسوف احتضنها بيد واحدة. وسوف امضي معها وقتاً طويلاً. يمكن بعده أن تستحم كل يوم. الحر نفسه سوف يجبرها على أن تستحم كل يوم. أنا أعرف بمدحت من أي رجل

آخر.! .. لكن لم لا أبحث عن عمل هناك؟ .. وماذا سأعمل؟ .. مدرب طاقم صواريخ؟ .. عمل كتابي مثل العمل في الصحافة. إن الأمر يقتضي التقصي. والفراغ الطويل سيساعد على هذا التقصي. فأنا احب الكتابة. هل لو كتبت عن الحرب سوف يقبلون؟ .. ربما .. لو كتبت عن الجهاد سيكون الأمر مسموحا به، وقضية فلسطين تساعد على التخصص في الكتابة عن الجهاد.

كانت عالية تجلس بجانب عريسها تفكر - هي الأخرى: لا أهمية لأنه يصغرني فأنا طبيبة وأعرف أن السن ليست عائقاً في الحب وممارسة الحب. لكن كل ما يقلقني أن ذراعه المبتورة قد تكون حائلاً دون سعادتنا. قد تجعله يشعر بالاكتئاب وقد تتقوض دعائم حياتنا. لن أدعه أبداً يدخل المطبخ، ولن أطلب منه يوماً أن يغسل طبقاً، أو يناولني كوب ماء أو حتى فوطة. سوف أتجنب أن أذكره بالذراع المبتورة. ولن أثير أمامه مسألة النقود أو المصروف أو ارتفاع الأسعار أو انخفاضها. وإذا تطورت نفسيته وتجنبني فسوف أعامله كأخت له بل كأم.

# الفصل الثامن والثلاثون

## سمو البخيل

فجأة، قرر الدكتور عباس العودة إلى لوس انجلوس، وترك القاهرة غير آسف. ولم يسأله أحد عما تم في مشروعه الذي طفق يلمح إليه في تباه، وقد جاء إلى القاهرة من أجله، فقد كان قلائل هم الذين يعرفون عنه، وما كان التباهي إلا ليثبت للجميع أنه عبقري، ولو أنهم لا يعرفون لم هو عبقري.

ركب بالدرجة الأولى كما يحب أن يركب، فهو من طينة مباركة لا يليق به إلا أن يكون من أهل القمة. جلس غاضباً نافراً ممن حوله: عيل. أمير عيل. ابن أبيه. وأب بخيل. أستكثر مبلغ أربعين مليون دولار في سبيل تشييد الفندق. ماذا كان يريد فندقاً ذا نجمة واحدة بألف دولار أو حتى مائة ألف!!.. يذهب الطفل إلى أبيه يحثه على دفع ثمن الأرض. ولا يأتي. يطلبني بالهاتف ويعتذر لأن والده يرفض تمويل الفندق. وماذا سنفعل بهذه الأرض التي دفعنا عربوناً لشرائها؟. لا أهمية للعربون مادام لم يخرج من جيبي. الطفل لا يهتم بالعربون، فقد كان ضئيلاً رغم ارتفاع ثمن الأرض. ساومت السمسار حتى قبل المبلغ الضئيل ليحجز الأرض حتى تصل الأموال السائلة .. ولم تصل. من سمو البخيل شيئاً. يتضح أن الطفل لا يملك شيئاً ووالده لا يريد أن يموله. خدعني العيل. كنت أمني نفسي بصفقة كبيرة. فليذهب إلى الجحيم هو وفندقه وأبوه البخيل ..

هدأ الدكتور عباس قليلاً. ثم تذكر المأدبة التي أقامها للأمير خالد، فقال: خسارة فيه، كلفتني ستمائة جنيه. ثم خطف الطباخ ليعمل في قصر أبيه، يا ويل الطباخ من كثرة العمل هناك. لن يبقى سنة وسيعود فاراً.

في مطار لوس انجلوس استقبلته كرستينا، هي وولده وابنته. وضمهم جميعاً إلى صدره. وقبل كرستينا قبلة عميقة في شفتيها كأنما يعوض الأيام التي حرم منها فيها. إذ لا زالت تلهب الحب في قلبه ولم تنطفئ شموعه. عرفت كيف تغزو فؤاده وتحاصره وتجعله مرتبطاً بها مع أنه لما طلق بنت المقاول، أطلقت أحد نساء العائلة، لعلها خالته قولتها: سوف يتعود على الطلاق، ولن تعمر واحدة معه. لكن ها هو زواجه من كرستينا يعمر، ويتمكن أن يصل إلى لقب الأستاذية بالجامعة، ويزحف إلى عالم الأعمال، ويبدأ صغيراً ثم يكبر. ويحصل على الجنسية الأمريكية، وتمر سنوات، وهو يرتفع دون هبوط. ولا يزال زوجاً لكرستينا ولم تطلب منه الطلاق ولم يفكر أن يطلقها.

قادت كرستينا السيارة لأن الدكتور عباس يكون متعباً عقب رحلته المباشرة من القاهرة إلى نيو يورك، ثم يركب طائرة على الخطوط الداخلية من مطار نيويورك الداخلي إلى لوس أنجلوس. رحلة تستغرق أكثر من سبع عشرة ساعة، وبعد ذلك قد يبلغ داره الجديدة في الضواحي بعد نصف ساعة. وإذا ما بلغ الدار، فهو يخلع ملابسه بسرعة، وينام كما يقول المصريون كالقتيل. ربما يمارس الحب مع زوجه في الصباح، وقد ينهض ويستحم، ولا بد أن يستحم في الصباح ويحلق شاربه وذقنه الكثيفين، ويتأمل

الشعيرات البيضاء في فوديه، ويقرر أن يتدخل بالصبغة لإخفائها. ويستغرب كيف يعيش حتى الآن بكلية واحدة. حقاً إن الله قدير على كل شيء. وهو يعرف أن الإنسان يمكن أن يعيش بربع كلية. ويدرك أنه يحسد نفسه بهذه الطريقة. فقد أثر هذا الحسد عليه، ودخل المستشفى لمدة أيام بعد مغص كلوى. وأجرى الطبيب عدة فحوصات وقاس وظيفة الكلى الواحدة. واتضح أنه التهاب تعرض إليه في حوض الكلى.

لا ينتظر عادة كرستينا حتى يأخذها إلى عملها، لأن لها سيارتها الخاصة، لذلك يمضي إلى الكلية، وحينما ينتهي من إلقاء المحاضرة الخاصة به، ينتقل إلى الشركة التي أسسها مباشرة للنظر في أعماله المتأخرة.

له طقم من السكرتيرات الجميلات، لكن ذلك الطاقم لا يفزع كرستينا، لأنها تثق بنفسها، وتثق بأن زوجها مستكف ومتعال على البشر. يعتقد أنه جنس راق ربما لبياض بشرته وعينيه الخضراوين وجنسه الشركسي، وطوله السامق، وأمتلأ جسده فيبدو كأنه ممثل سينمائي فريد. وكأنما يقول للأرض: احفظي ما عليك.

وقد يقابل كرستينا عند الساعة الواحدة لتناول الطعام معاً. أما الولد والبنت فإن الخادم المكسيكية المرخصة تأخذهما في الصباح إلى باب الدار حتى تأتي سيارة المدرسة لنقلهما إليها ثم تنتظرهما قرب الساعة الرابعة للعناية بهما داخل البيت.

يعود الدكتور عباس مرهقاً في الساعة الخامسة والنصف ليجد كرستينا قد سبقته إلى الدار لإعداد طعام العشاء إن لم تكن الخادم المكسيكية قد أعدته، ويتعشيان ومعهما الولد والبنت. ثم يخلد

الولدان إلى النوم. وهما يدخلان إلى الفراش مبكرين. أما الأبوان فقد يحضران حفلاً يقيمه أحد الأصدقاء، أو ينتظران أن يصل إلى الدار بعض الأصدقاء.

سألته كرستينا في الصباح بعد أن روى لها المقلب الذي سقط في فكه من ذلك الأمير، ولكن الرواية كانت مقتضبة كعادته فهو لا يعلن عن فشله باستفاضة: هل ستعود إلى القاهرة من جديد؟

قال مبتهجا: مرات ومرات .. لقد عقدت عدة صفقات مع القوات المسلحة المصرية .. بفضل ما لي من أصدقاء .. وصفقة مع مطار القاهرة الدولي .. وبعض فنادق في مصر .. لم تذهب زيارتي سدى وأنا في مصر .. سوف نقوم بتوريد معدات وآلات وأجهزة.

# الفصل التاسع والثلاثون

## في ذهول

صرخ مدير مكتب رئيس الأركان، وهو يقول:

- من هذا العبد الموجود الذي كلما طلبت طلباً تقولون لي كان عبد الموجود يعرف أين يكون ولا نعرف نحن؟..

قال عضو المكتب:

- إنه النقيب عبد الموجود عبد السميع حميدة يا أفندم. نقل بعد تولي رئيس الأركان الجديد إلى جبهة السويس في الجيش الثالث.

قال مدير المكتب: إذاً أرسل إليه أن يحضر على الفور إلى المكتب لأعرف منه أين خبأ التقارير التي أريدها.

- حاضر يا أفندم.

تلقى عبد الموجود إشارة الاستدعاء واستغرب: ماذا يريدون منه بعد أن ألقوا به إلى أنياب الصقور. غير أنه قاومهم مقاومة لا يستهان بها، جعلتهم يتقهقرون خارج السويس. وقف هو وأخوانه كالحمائم المسلحة بمناقير حادة في مواجهة الصقور، فخشيت على نفسها من الجراح، فلم تدن منهم. أطلقوا المدفعية بآلاف الطلقات. أفرغوا الرصاص في المقاتلين الأعداء حتى ارتدوا على أعقابهم، ولم ينقذهم من الهلاك إلا وقف إطلاق النيران. والحمد لله أنه لا يزال على قيد الحياة. إن ذراع مدحت المبتورة جعلت حياة أمه عذاباً مليئة بالكآبة، فماذا كان سيحدث لها لو أنه استشهد. ولعلها تعذبت كثيراً وهي تعرف أنهم وقعوا تحت الحصار دهراً، لا يمكن

أن يقاس بالزمن، إنما يقاس بالمشاعر الحادة المتوهجة القلقة. كان في إمكان القيادة امتصاص الثغرة منذ البداية، لكنها أهملتها حتى استفحلت. ولكن القيادة كانت حكيمة إلى حد ما، لقد ضحت بقليل من الشهداء والجرحى والأسرى حتى تلاشت الثغرة وعاد الأعداء إلى ما وراء القناة.

استقبله مدير مكتب رئيس الأركان. وأدى عبد الموجود التحية العسكرية، فأرتدى مدير المكتب قبعته، وأدى التحية، ثم صافح عبد الموجود، وهو يقول:

- أهلاً نقيب عبد الموجود. كلما سألت عن شيء في هذا المكتب، يقولون لي إن عبد الموجود يعرف مكانه. طلبت أن أراك لأعرف أين الأشياء التي أطلبها؟

- أنا رهن الإشارة يا أفندم.

- كنا مشغولين بمسألة وقف إطلاق النار وانسحاب الجانب الإسرائيلي من الثغرة إلى داخل سيناء. والآن وقد تم كل شيء فإننا نبحث في الدفاتر القديمة. وهاهي قائمة بالتقارير المطلوبة التي يقولون عنها إنك تعرف مكانها.

تسلم القائمة وهو يقول:

- سوف أحضرها لك على الفور يا أفندم.

وبعد نصف ساعة كان عبد الموجود يقدم كل التقارير المطلوبة. وقلب فيها مدير المكتب وقال:

- عظيم .. عظيم ..

ثم سكت وقال:

- يمكنك أن تعود إلى وحدتك في السويس. وتعلنهم أنك نُقلت من جديد إلى مكتب رئيس الأركان. وسلم عهدتك ثم سلم نفسك للمكتب على الأقل بعد غد.

نظر إليه عبد الموجود في ذهول.

# الفصل الأربعون

## الطفلة المغولية

أصيبت كاميليا بالاكتئاب، لما كان أول خلفتها طفلة مغولية، لا تكاد تتوازن وهي تمشي، وعيناها تتراقصان من حين لآخر، وتبدو شاردة الذهن كأنما تعيش حياة خاصة، وتنطق الكلمات بتهتهة وتقطع مستمران، غير أنها أحبت الطفلة. فقد كانت جزءاً عزيزاً منها ولا تزال. تكونت في رحمها وغذتها من غذائها وقاست من أجلها.

عهدت بها إلى أمها، التي أشفقت على الطفلة، وسكبت عليها من حنانها. أشفقت عليها أمها من هذا المصاب الأليم، وتطوعت لرعاية الطفلة، حتى تتمكن كاميليا من مواصلة عملها بالفندق مع زوجها لطفي. إذا هي تعرف أن ليس لديهما قدرة على الإنفاق وليس لهما مدخرات أو إيرادات من عقارات أو أطيان، حتى يتمكنا من الإنفاق على ما تتكلفه هذه الطفلة من أدوية وتعليم خاص ورعاية معينة، فالفقر يصاحبهما في الدنيا ولا سبيل من الوقاية من شروره إلا بتعاونهما معاً. وكان لطفي قد قرر العيش في شقة علوية، لكن كان يتعهد بمصروف البيت، ويترك علوية تدفع إيجار الشقة، حتى تشعر دائماً أنها شقتها، كما كان يجعلها تدفع قيمة فاتورة الهاتف نصف السنوية، ويتكفل هو بما تبقى من مصروف.

كانت كامليليا تثور على طفلتها المتخلفة في البداية، حتى أدركت أن لا ذنب لها في تخلفها، وعليها أن تكون رقيقة معها، فاحتضنتها،

وأغدقت عليها كل الحنان. وكان لطفي يغدق الحنان على الطفلة ويلاعبها ويتحدث معها وينزل إلى مستواها في التخلف حتى تفهمه. ويحاول أن يسأل عن مدارس المتخلفين الخاصة، ويدرك أنه سوف يقطع قسطاً كبيراً من مرتبه حتى يمكنه أن يلحق دينا بهذه المدرسة. ولو أنها لم تبلغ بعد سن الدخول إلى المدرسة. وقد تعهد الطفلة طبيب يعرفه لطفي طالما صحب وفوداً جاءت في مؤتمرات طبية مختلفة إلى الفندق. وكان يكتب لهما الأدوية التي تنميها وترفع من مستوى ذكائها وتساعد على أتزان حركتها، ولا يتقاضى في مقابل ذلك شيئاً.

ولم يكن في البيت غير علوية وكاميليا ولطفي والطفلة المتخلفة. فقد سافرت عالية بعد زواجها من مدحت إلى المملكة العربية السعودية. واستقرت وفاء في الكويت لا تبرحها بعد أن حصلت على بكالوريوس التجارة وعملت، كما شغلتها تربية أولادها وبناتها ورعايتها لهم. ومن حين لآخر تطلب أمها بالهاتف لتثرثر معها زهاء نصف ساعة، خاصة في أيام الجمع. ثم تنهي أمها الثرثرة لأن قيمة المكالمات مرتفعة. فتضحك علوية وتقول: لقد ارتفعت عندكم مستويات الدخول بعد أن رفعتم قيمة النفط، فترد وفاء قائلة: ذلك الرفع يذهب إلى جيوب الحكومة وليس جيوبنا.

تأكدت كامليليا من أن أمها قد طُلقت من المقاول، وذلك بعد تفرغها لأبنتها المتخلفة. ولو أنها لم تعرف قصة خيري - حبيب صباها - الذي كان يهاتفها كثيراً. ففي لقاء في المصرف مرة أخرى التقت به، وطفق يحدثها قتلاً للوقت الطويل في انتظار صرف الصكوك، فعرف منها رقم هاتفها، وواصل معها الاتصال

بعد ذلك. وسمت الموقف حب عبر الهاتف. وكانت تترك دينا تلعب بلعبها التي عادة ما تحطمها حتى زحمت البيت باللعب المحطمة. وتتحدث مع خيري ساعة أو نصف ساعة. ودائما ما كان يطلبها للزواج. وغالباً ما كانت ترفض. وأحياناً كانت تسأله أن يتركها تفكر. وذلك من أجل فتح الباب لمحادثة أخرى. يسألها فيها من جديد: هل فكرت؟ .. فتتغابى وتسأل: فيم؟ .. يقول: في الزواج. تقول بتبرم: أنا وضعي الآن لا أحسد عليه يا خيري. يقول: كيف؟ .. تقول: إن أبنتي الوسطى تعيش الآن معي هي وزوجها. وقد أنجبت بنتاً متخلفة أقوم برعايتها. فإذا فكرنا في الزواج فمن يرعى هذه الطفلة. إنها تحتاج إلى معاملة خاصة ولا يمكن لخادم أن تقوم برعايتها خير رعاية كما أرعاها. ولو تركت البيت فسوف تضطر ابنتي كاميليا أن تستقيل فينخفض دخلها هي وزوجها ولن يتمكنا من أن يقدما العون لهذه الطفلة .. أما لو جئت وعشت معنا أنت وبنتاك فسوف تزحمون البيت. وما أدراك ما الزحام. وما أدراك ما سيحدث من علاقات الحب والكره التي تنشأ فيما بين أفراد العائلة.

يقول خيري: إذاً فقد حرمني اللواء منك. وهاهي حفيدتك تحرمني منك.

تستطرد علوية: ولو تزوجنا فسوف أفقد معاشين. أحدهما من زوجي المتوفى. والآخر من أبي المرحوم. معاش مدني. ومعاش عسكري.

يسأل خيري: وما رأيك في الزواج العرفي؟

تبادر قائلة: أنا لا أفكر في ذلك أبداً.

# الفصل الحادي والأربعون

## تراب الانتصارات

جلس مدحت ينتظر عالية في بهو المستشفى. كانا على موعد أن يلتقيا بعد إنهاء ورديتها ليشتريا هدايا للعائلة الكبيرة، فقد حان موعد إجازة عالية السنوية. وكان مدحت يسمي عائلته عائلة سعادة اللواء.

لم يستكن مدحت لوضعه في مكة المكرمة باعتباره حرم محرم لزوجه الطبيبة. إنما بدأ يكتب مقالات مما يسمعه في الحرم الشريف من كبار العلماء، ويرسلها إلى صحيفة تصدر في مكة تحت عنوان دروس دينية من الحرم الشريف. وقد أعجب بهذه المقالات رئيس التحرير، ففيها تدوين للدروس الدينية التي لا يسمعها إلا القلة ولكن في نشرها إعلام للكافة.

كان فرحا بالاشتغال بالصحافة المحلية، وأشترى آلة كاتبة تعوضه عن رداءة خطه، وطفق يستعمل إصبعاً واحداً في الكتابة عليها، وزادت سرعته بمرور الوقت، غير أن الفرحة كانت تشوبها بعض لمسات الحزن. كثيراً ما سأله زملاؤه عن ذراعه المبتورة، فيتذكر حرب أكتوبر ويتألم. وكثيراً ما كان يثير زملاؤه المزاعم حول انتصارات حرب أكتوبر فيتذكر ذراعه التي يريد أن ينسى أنها بُترت فيتألم ويحزن. لكن لم يكن يجعل الآخرون يهنئون باللمز وكان يدافع عن الانتصارات، ويخفي ما حدث في الثغرة. فالمأساة كلها جاءت من الثغرة. هي التراب الذي سُكب على الحلوى. هي التراب الذي أهيل على الانتصارات. لكن نفخة واحدة تهب تجرف

تراب الانتصارات في طريقها. إنها نفخة الحق. كان يمضه أن يبخسوا الرجل انتصاراته، وينسبونها إلى الفقيد، وهم يمجدون هذا الفقيد، رغم أنه كان طاغية، أدخل الكثيرين السجون، والآخر أخرج الكثيرين من المعتقلات، لكنه يعرف أن اعلان الزعيم الفقيد وإعلامه كانا أقوى من إعلان الرئيس وإعلامه. كان الأول ينادي بمبادئ وأفكار عاشت الأمة ترددها دهراً. وكان الثاني يقطع أواصر الصداقة بينه وبين الدول العربية، لدرجة أنهم أشاعوا أن زعيم مصر مختلف مع زعيم سوريا، رغم أنهما بدآ الحرب معاً. ولكن تخلى الأول عن الثاني في منتصف الطريق.

أفاق من تأملاته، وهو ينتظر عالية أن تنتهي من عملها، جالس في البهو يتأمل الخارج والداخل دون كلل. ومر أمامه شاب في مقتبل العمر، أنيق، يرتدي الملابس الإفرنجية، يبدو من سماته أنه مصري. وبرز منديل في لون رباط العنق يتدلى من جيب جاكتته في أناقة، ورباط عنق فخيم زان صدره. كان يمشي كأنه ملك. تبدو عليه سمات العز والكبر والوثوق بالنفس. وجاءت ممرضة تجري وراءه ترتدي ملابس بيضاء نقية زاهية ، وطفقت تهرول وراءه منادية:

– دكتور محسن شفيق.

والتفت إليها، وسمعها تقول:

– الدكتور المدير يريدك.

عاد الرجل الأنيق من جديد داخل المستشفى وقد كاد يبرحها. بينما استغرق مدحت في تأملاته من جديد. ألم يسمع هذا الاسم من قبل. نعم .. نعم .. إنه محسن شفيق ذلك الذي كان أبوه يروي عنه

قصة خداعه لعالية: متزوج وله أولاد، ويريد أن يرتقي بمستوى زواجه، فتقدم لعالية طالباً يدها، فزوجه الأولى كانت خادماً في قصر أبيه، أما الثانية فهي تنحدر من عائلة كريمة .. ما الذي جاء به إلى هذا المستشفى؟ .. لابد أنه يعمل فيه؟ .. أتكون له علاقة بعالية؟ .. وما المانع فالعمل عمل. لكن هل وصلت علاقاتهما إلى حد الغرام مثلاً؟ .. وما المانع أن تفضل طبيباً مرموقاً على ضابط متقاعد مبتور الذراع؟ .. هذه الذراع قد ولدت لديك شعوراً بالنقص لن يفارقك إلى الأبد يا مدحت؟ ! .. حاذر من التفكير الملتوي.

تأتي عالية - بعد قليل - وتلقي التحية على زوجها فرحة مبتسمة سعيدة تكاد تطير .. ما السبب؟ .. هل عرفت أن الطبيب محسن شفيق قد عمل في المستشفى؟ .. أهي سعيد للقائه وتجديد لواعج الغرام. أم هي فرحة بهذه الدرجة؟ .. غير أنها لم تبادر بالكلمات عن سبب فرحتها. ولم تتأبط ذراعه لأن ذلك عيب في الأرض الحرام. ومشت بجانبه وهو ينادي على سيارة أجرة تقلهما إلى السوق. وكان يرتدي ثياباً إفرنجية لكن كان يغطيها بعباءة رجالي بنية تخفي ذراعه المبتورة.

يشتريان ما يرغبان وهو عابس وهي مرحة فرحة. يمضيان معاً إلى البيت، يبادرها بمجرد دخولهما، وهو يجلس إلى كنبة في بهو الدار:

- أليس محسن شفيق ذاك هو الذي تقدم لخطبتك؟

تسأل باستنكار، وعيناها تتهمانه بالغيرة:

- هو،، لكن رفضته لأنه مخادع.

يقول: سمعت الممرضة تنادي عليه أهذا اليوم الأول لوصوله؟

تقول: لا .. إنه يعمل منذ مدة. لقد تم التعاقد معه - في نفس اليوم .. الذي تعاقدت فيه. ولم أعرف طبعاً إلى أن صادفته بين ردهات المستشفى.

- هل يعمل معك؟ ..

- لا .. طبعاً .. تخصصه غير تخصصي.

- وهل كنت سترفضين العقد لو عرفت أنه سيعمل معك في المستشفى؟ ..

تقول باستنكار:

- ولم أرفض؟ .. ما علاقتي به؟ .. فيم تفكر؟ ..

يقول متراجعاً:

- أبداً .. لا أفكر في شيء.

قالت له كأنما تقتل غيرته وتنهي حديثها:

- لا أفكر في رجل غيرك .. يجب أن تعلم أنك حبيبي الوحيد والشوق لك يزيد. وكنت أظن أنني أرض جدباء، فراعتني عناية السماء، وجعلتك تمنحني الأمومة وكنت أظنها لن تأتي.

ينظر إليها مبهوتاً. أخيراً أصبحت أباً. ألهذا كانت سعيدة حينما التقيت بها؟ ..

# الفصل الثاني والأربعون

## عشرة القراونة

ينتظر مجاهد وبيومي السيارة العامة، ليعودا من جديد معاً إلى القاهرة، بعد أن تم تسريحهما معاً من القوات المسلحة. كانت الحرب قد هدأت أوزارها، وتراجعت إسرائيل من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية، بل ابتعدت عن مواقعها القديمة في هذه الضفة. وتذكر مجاهد الموقعة التي تكبدوا فيها خسائر فادحة، وعرف فيما بعد أن السبب هو توغل الجيش في سيناء مشتتاً، مما مكن الإسرائيليون منهم. وسقط كثير من الشهداء. وجُرح البعض منهم. وأصيب البعض الآخر. لكنه وبيومي لم تصبهما حتى شظية واحدة. استغرب أن يخوضا المعركة، ويحاربا، ويمطرا العدو بالرصاص، وبيومي يحاول اصطياد الدبابات بالأرباجا. ويخرجان سليمين من المعركة. لا خدش واحد. وتذكر أخاه الذي أصيب. وأخوه الثاني الذي عاد إلى مكانه الأول في قيادة الأركان بعد أن ثبتت حاجتهم إليه.

يسأله بيومي:

- أين ستعمل؟

يقول مجاهد: لا أعلم. لكني عُينت في وزارة المالية. ولا أعرف أين سيكون موقعي. يسأله بيومي: لم لا تأتي وتعمل معي في الصحافة؟

قال مجاهد: أنت صحفي؟! ..

يقول بيومي: نعم .. أنا حاصل على بكالوريوس الإعلام وأعمل في جريدة كبرى.

- غريبة .. ولم لم تقل لنا؟ ..

- ما أهمية ذلك .. كلنا كنا جنوداً لا يتميز أحدنا على الآخر إلا بإتقان القتال.

يقول مجاهد ضاحكاً: كنا على الأقل زدنا في احترامنا لك.

يضربه على كتفه وهما لا يزالان على الرصيف ينتظران وصول السيارة ويقول:

- أنا أفرض احترامي على الجميع دون ما حاجة إلى أعلامك بشهادتي .. أفرضه بعلمي. ألا يكفي ذلك؟ ..

- نعم .. نعم .. كنت عالماً.

- ومازلت ..

ويركبان السيارة العامة، وليس هناك منافسون كثيرون لهما على المقاعد في السيارة، فالبلد لا زالت في حالة تهجير، ويتجاوران في المقعد، ويسأل بيومي:

- أين تسكن؟ ..

يقول مجاهد:

- أسكن حالياً مع أبي في مصر الجديدة.

يقول بيومي:

- ما شاء الله .. ما شاء الله .. أما أنا فأسكن في السبتية .. موقع الطبقة ما بين المتوسطة والدنيا.

يقول مجاهد: أتخترع طبقة جديدة؟ ..

يقول بيومي:

- أبداً .. إنها الحقيقة. في السبتية تجد أغنياء مستترين. وتجد فقراء يبدون كأنهم أغنياء. لا تعرف من فيهم الغني ومن فيهم الفقير

بجانب أبناء الموظفين والموظفين أنفسيهم، وأنا أعد من أبناء الموظفين. فأبي يعمل في هيئة الكتاب القريبة من السبتية. يأخذ طريقه إلى العمل مشياً على الأقدام. وأمي سيدة بيت.

يقاطعه مجاهد: تقصد ربة بيت. مثل أمي.

يقول بيومي: لن نختلف. ويواصل كلامه قائلاً: ولي أخت وأخ يصغراني. الأولى على وشك التخرج من كلية الآداب، وربما تعمل مدرسة، ولو أنها تريد أن تعمل مترجمة. والثاني في الشهادة الثانوية. وأمامه سنوات - لو دخل الجامعة - حتى يُطلب إلى الجيش.

يقول مجاهد: نحن ثلاثة أخوة. لا زلنا نعيش مع أبينا مثلكم. ولو أن الأول أصيب في حرب أكتوبر وتزوج وسافر مع زوجه للعمل في مكة المكرمة. والثاني لا يزال أعزب .. رُقي إلى رتبة رائد هذه الأيام بعد بلائه بلاء حسناً في معركة السويس بعد ثغرة الدفرسوار. وأنا بين يديك، تعرفني، ولا أعرفك بالمرة.

قال بيومي: هاأنذا رويت لك الخطوط العريضة عني .. وكنت تجهلها تماماً. وأريد أن تزورني مثلما أزورك.

قال مجاهد: وهل عشرة القراونة يمكن أن تُنسى يا بيومي .. لقد مضى علينا في موقع واحد أكثر من ثماني سنوات .. تصور أنني دخلت الجيش على زعم أنني سوف أنتهي من تجنيدي في سنة وشهور فإذا بي أبقى مجنداً زهاء ثماني سنوات. بل الأغرب أنني لا زلت مرتبطاً به ربما زهاء ..

ويستخرج ورقة المعاملة من جيبه .. ويقرأ الوثيقة. شهادة المعاملة العسكرية. ويقول: ربما ثلاث سنوات أخرى أو أربع.

# الفصل الثالث والأربعون

## ألا تكف عن السخرية؟

ركب الدكتور عباس الطائرة، هو وعائلته - زوجه كرستينا وابنه باهر وابنته نهال - صمم أن يسافروا بالدرجة الأولى وأن يسافروا هذه السنة إلى مصر، ليتعرف الولد والبنت على عائلتهما، وفي نفس الوقت، ليثبت لهذا المدعي صفوت، أنه قادر على دفع ثمن تذاكر العائلة، وأنه ثري فعلاً وأمواله طائلة، وأنه يتمكن من أن يدفع ثمن تذاكر الدرجة الأولى، ولو تسنى لهذا الصفوت أن يركب الطائرة، وهو لم يركبها أبداً، ولو ركبها لكان مكانه بالدرجة السياحية .. ولكن ما أهمية أن يثبت ذلك لصفوت، ولم يضعه نصب عينيه؟ .. لا يعرف! ..

كان طابعه العسكري يشده دائماً إلى الأحداث الحربية خاصة في مصر. شده من قبل إلى حرب فيتنام. أثناء دراسته في أمريكا. والآن يشده إلى حرب أكتوبر. كانت مفاجأة له مثلما كانت هي الأخرى مفاجأة لأمريكا. لقد أخذت أمريكا على غرة. حيث كانت هناك دلائل كثيرة تشير إلى أن مصر وسوريا تشعران بالإحباط نظراً لضعفهما العسكري، ولو أنهما يتشدقان معاً باللجوء إلى القوة فيما بعد. جاء ذلك "البعد" بعد أكثر من ست سنوات. ولم يكن هناك تنبوء بالحرب فالتوازن بين إسرائيل والدولتين مفقود. ولو قاما بالحرب لضاعت أراضيهما كلها. بل إسرائيل نفسها تقدر أن لا

مصر ولا سوريا تخططان للحرب. وطلبت من كسينجر أن يطمئنها أنهما لن تدخلا حرباً معها.

ويتذكر الدكتور عباس أنه ظن أن إسرائيل هي البادية بالعدوان، بل ظنت أمريكا أيضاً ذلك في البداية، حتى تكشفت الصورة.

قطعت عليه كرستينا أنسياب أفكاره، وسألته:

- فيم تفكر؟ ..

قال: أبداً.

قالت بنظرة ثاقبة كأنها تقرأ ما يدور بخلده:

- دعني أقول لكِ ..

وكانت تدرك ميله إلى الحياة العسكرية، حتى أنه لا يزال يستيقظ في الساعة الخامسة والنصف ولا ينام إلا في العاشرة. ولا يزال يواصل التمارين الرياضية، ولكنه قلل منها الآن، فظهر ذلك الكرش المتحجر أمامه، قالت: أنت تفكر في حرب أكتوبر ..

قال: رائع ..

- فيم وصلت؟ ..

- أبداً .. كنت أفكر أن إسرائيل ظنت أنها ستكسب الحرب في نهاية الأسبوع. ويومها أعرب كسينجر عن حيرته في رفض العرب وقف إطلاق النار حتى يتمكنوا من احتراز المكاسب التي تمكنوا منها .

قالت كرستينا: كانت مخدوعة. كانت أيضاً تقاوم صعوبات عسكرية على جبهتي سوريا ومصر. كان نظام الدفاع الجوي السوري يكلفها خسارة فادحة في طائرات السكاي هوك والفانتوم. وفي مصر أحبط الجيش المصري في سيناء محاولات إسرائيل الاقتحام بالدبابات لتلك الخطوط التي استولى عليها المصريون. ثم استطردت كرستينا كأنما تناصر اليهود.

- لكن إسرائيل حققت تقدماً سريعاً واستعادت مرتفعات الجولان. وتدفق السلاح الأمريكي على إسرائيل. وتمكنت إسرائيل من فتح الثغرة.

- أتعلمين أن إسرائيل خسرت كثيراً من الطائرات على الجبهة السورية. وخسرت نحو خمسمائة دبابة على الجبهة المصرية. ولولا علمها أن خسارتها سوف تستمر لما تراجعت عن الثغرة. إن بالثغرة كانت إسرائيل تحفر قبرها بنفسها فتوقفت عن الحفر.

سمعت كرستينا ابنها باهر الذي لم يتجاوز الرابعة، يتذمر لأنه جائع. وانقطع حبل الحديث بمرور المضيفة حاملة الطعام إلى الأطفال.

سرح الدكتور عباس وهو يفكر: خسارة. لقد استعادت إسرائيل معظم الأراضي بالجولان التي فقدتها في الأيام الثلاثة الأولى من القتال. لكن لم ينكسر السوريون واستمروا في المقاومة. ولعله لم يكن في ظنهم أن العدو سوف يتوحش. ويضرب مصفاة النفط في

حمص. ويسقط القنابل على وزارة الدفاع ورئاسة أركان حرب السلاح الجوى في دمشق.

وأنشغل الدكتور عباس بطعام الدرجة الأولى الفاخر وهزأ من نفسه. ماذا كان سيحدث لو استمررت في الجيش. أو لو استمررت في وظيفتي في شركة قناة السويس. لم أكن سأصل أبداً لهذه المرتبة ولحقت عبارة السيد صفوت إنني لا أملك ثمن التذاكر .. لم تزن هذه العبارة دائماً في رأسي مع أنه قال أشياء كثيرة. هناك عبارات يسمعها الإنسان تبقى معه حتى الممات ومنها هذه العبارة. لولا طموحك يا دكتور لكنت الآن تسبح في مياه آسنة. أنت الآن مقدم على الاصطياف في العجمي. أفخر شواطئ مصر الآن. لقد طلبت من أميمة أن تقوم باستئجار فيللا لعائلتي في البيطاش. وتزعم أميمة أن الفيللا قريبة من فيللا عبد الحليم حافظ.

وفي المطار استقبله زوج أميمة وأميمة معه، وحمل حقائب الدكتور إلى السيارة، يجرها بعربة من المطار، وما يفعله غير أنه يتقدم بها. ولم يسمح للدكتور أن يساعده في نقل الحقائب لأنه - كما قالت أخته - كبير في السن وله كلية واحدة، وقد يؤلم الكلية الوحيدة ثقل الحقائب. وعلق زوجها قائلاً: وهو من الأغنياء الذين يجب أن يخدموا. قالت أميمة مستنكرة: وما بعد ذلك؟ .. ألا تكف عن السخرية؟ ! ..

كان صفوت ساخطاً، لكنه لم يكن يستنكر أن يحمل الحقائب الثقيلة من العربة إلى حقيبة سيارة الأجرة بمساعدة السائق. إذ

أضطر الدكتور عباس أن يستخدم سيارة أجرة لتوصيله إلى مقر إقامته. وحمل صفوت الحقيبة الكبيرة الباقية إلى حقيبة سيارته.

لم يكن أحد يعلم بقدومه إلا أميمة وزوجها الدكتور صفوت، فقد اصبح دكتوراً أخيراً بعد مناقشة الرسالة، غير أن وضعه الوظيفي لم يتغير، فهو ليس معيداً بالكلية، إنما هو موظف من موظفي الدولة. كل ما حصل عليه خمسة جنيهات - وصلت بعد عذاب - علاوة على مرتبه.

وكانت أميمة قد جهزت شقة الدكتور التي لا تزال تدفع إيجارها سنوياً، يرسل لها الدكتور عباس الإيجار من أمريكا. واستأجرت خادماً لتعمل في بيت الدكتور زهاء شهر على الأكثر مقابل مبلغ مائة جنيه. على أن تسافر مع العائلة إلى الإسكندرية. ووافقت المرأة.

وهناك في الشقة عاينت كرستينا الخادم، وهي تنتظر قدومهم. ولم تكن تعرف كلمة إنجليزية فقالت: سيكون التفاهم معها صعباً، هل أستطيع بالقليل من اللهجة المصرية التي تعلمتها أن أتفاهم معها؟ .. قالت أميمة: سوف يكون الدكتور معك فدعيه يترجم لك.

رأت كرستينا شقتها من جديد تلك التي كانت قد أعادت تأثيثها يوم كانت منذ خمس سنوات في القاهرة وأمضت فيها ثلاث سنوات طوال ثقال.

لم يصعد صفوت مع أميمة، إنما ودعهم على لقاء عند باب العمارة، وحمل البواب الحقائب إلى الدور الثالث في المصعد.

ورأي الطفلان بيت أبيهما المصري، ورأهما يتجولان فيه يتفقدان الحجرات. ويحاولان أن يقارنا بينه وبين الدار الواقعة على شاطئ البحر في لوس انجلوس. وقال أبوهما يطمئنهما باللغة الإنجليزية:

– غداً .. سوف نسافر إلى الإسكندرية. الفيللا هناك فسيحة بجانب البحر. ولن تفتقدا دار لوس انجلوس أبداً.

# الفصل الرابع والأربعون

## في صف الفاشلين

كان بيومي جالساً في صالة التحرير بالجريدة، يقرأ كتاباً عن موقف أمريكا من حرب أكتوبر، ويتذكر المقالة التي كتبها عن القتال، ورفضتها الرقابة. لا يدري هل هي رقابة رئيس التحرير أم رقابة الحكومة. كانت المقالة تنتقد الموقف الأخير في ثغرة الدفرسوار. هو يدرك جيداً أن أمل الحكومة هو وقف إطلاق النار وأن يتبع ذلك انسحاب تحت إشراف الأمم المتحدة إلى خطوط ما قبل ٥ يونيه ١٩٦٧. لكن إسرائيل خيبت أمل الحكومة في ذلك. وساعدتها الحكومة الأمريكية بإمدادها بالسلاح المتطور، في نفس اليوم الذي أمدت فيه روسيا سوريا بالمعدات العسكرية بطريق الجو. ولما وجد أن المقالات المكتوبة من وحي الخاطر تُرفض، قرر أن يقرأ الكتب العسكرية ويلخصها ويعرضها على القارئ، لعل رئيس التحرير يوافق على النشر.

دخل عليه مجاهد مصافحاً، فانقطع تيار فكره بالكامل عن الحرب، ورحب بالصديق العزيز .. صديق القتال.

سأله: خرجت مبكراً من العمل اليوم .. كيف؟ ..

قال: إن الحروب المتتالية هي السبب. أراد المسئولون أن يجدوا أعمالاً لآلاف المتعطلين فألحقوهم بالحكومة. وصارت الحكومة

تكتظ بالبطالة المقنعة مثلما تزدحم الحقول بالعمال الزراعيين وهي لا تحتاج إليهم.

– رائع .. هذه فكرة مقالة جميلة. فقد حاولت أن اكتب عن الحرب. غير أن رئيس التحرير نظرني نظرة مستغربة. وشعرت حينئذ أنني ضئيل. قزم في عالم الصحافة، فامتنعت عن الكتابة. لا أعمل الآن إلا في تجميع الأخبار من الوزارات.

– هل تظن أنه سيوافق على المقالة عن ازدحام الأجهزة الحكومية بالموظفين لدرجة أن الكثيرين منهم لا يجدون عملاً. إن هذه المقالة فيها انتقاد لسياسة الحكومة فكيف تظن أنه سيقبلها؟ ..

– سوف أحاول. وإذا لم أنجح فسوف أنضم إلى صف الفاشلين. وأعتقد أنه سيقبلها إذ مادامت لا تمس الرئاسة ولا تتعرض للإستراتيجيات العليا في الحرب والسلم فهي مقبولة.

عاد مجاهد إلى شقة والده. لم يعد أمامه غير أن يبحث عن بنت الحلال، حتى يدفن آلامه فيها. وينسى أنه عاطل مقنع. وأنه يسير في صف الفاشلين. ولاحت له فكرة وهو يجد عمه الدكتور عباس في زيارة عائلته، سأله:

– ألا أجد عملاً في أمريكا يا عمي؟

سأل الدكتور عباس: أين؟

قال مجاهد مغتاظاً: في شركتك مثلاً. أليس لديك شركة؟

قال الدكتور مجاهد متباهياً: نعم لي شركة وأنا رئيس مجلس إدارتها. ولكن حتى تعمل عندي لابد أولاً أن تجيد اللغة الإنجليزية. وأن تكون ذا كفاءة نادرة، حتى أجد مبرراً لدخولك أمريكا.

تدخل عبد السميع وقال: على الأقل أنت يا سيد مجاهد تعمل الآن ..

قاطعه مجاهد: بهذه القروش التي لا تفي بشيء .. تسميني أعمل، وأنا هنا قبل انتهاء العمل.

استكمل عبد السميع كلامه قائلاً: فما بالك بأبيك .. الذي يجلس في البيت منذ عام ١٩٦٧ ولم يجد عملاً. ألم يفكر الدكتور عباس أن يجد له عملاً؟

قال عباس مندهشاً: في أمريكا؟؟ ..

قال عبد السميع: لا أقول أمريكا .. هنا في مصر .. مثلاً تنشئ فرع لشركتك أقوم بإدارته أو حتى أعمل فيه موظفاً إذا كنت لا تثق في إدارتي.

قال عباس ضاحكاً: هذا وارد فعلاً بعد توسع الشركة لأعمالها مع مصر. وقد أنشئ هذا الفرع في القريب العاجل.

قال عبد السميع لأخيه الأصغر: أنت يا دكتور تتكلم كثيراً .. لقد قلت لي ذلك الموضوع أكثر من مرة. في كل زيارة تقول لي إنك سوف تنشئ فرعاً لشركتك. ولم تفعل.

قال الدكتور عباس ساهماً: أبداً ظروف .. لكن بعد اتساع حجم الأعمال أصبح الأمر وارداً.

نهض مجاهد ضاحكاً وهو يقول: حان الآن وقت الزواج.

تدخلت أمه في الحديث وسألت: ومن ستتزوج؟ ..

قال مجاهد: سوف أتحول إلى موظف عمومي .. يحمل البطيخة في الصيف .. والبرتقال في الشتاء . ويدخل على زوجه وأولاده يقابلونه بوجوه متجهمة. ويفرحون بالبطيخة. وعندما تشقها الزوج تجدها بيضاء مليئة باللب .. قرعة.

يبتسم عبد السميع لخفة دم ابنه، ويهدأ الدكتور عباس لأنه صرف النظر عن الذهاب إلى أمريكا، ولم يتشبث بالأمر. وهل كل الناس تذهب إلى أمريكا؟ .. لن يذهب إليها إلا العقليات النادرة أمثالي. أما أنتم فعليكم أن تقفوا في صفوف الجمعيات الاستهلاكية تنتظرون الدجاج المثلج والسمن النباتي أو الزبد الطبيعي لتحويله إلى سمن بلدي وقطع الصابون النادرة. وتطحنكم الحكومة بالحروب. ولا تقولون لها ما هو ثلث الثلاثة. وتسيرون في طريق الأغلبية الصامتة. أغلبية القهر الماضية في طريق ليس فيه نور.

كانت زوج الدكتور عباس وولداه بصحبته، جاءوا للتعرف على عمهم العقيد عبد السميع. جاءوا يودعونهم على لقاء في الإسكندرية حيث سيمضون شهراً كاملاً عند البحر.

قال عبد السميع وقد نفض عنه غبار الكسل والبلادة:

- سوف نلحق بكم .. سوف نقيم عند أخي البحار منصور. لقد فرغ بيته من سكانه. ابنته الكبرى تزوجت. وابنته الصغرى تعمل خارج الإسكندرية. وابنه فقط لا يزال يدرس في طب الأسنان. وقد دعاني أكثر من مرة لكني لم اكن ألبي.

قال الدكتور عباس: أريد أن أراكم في الفيللا التي استأجرتها.

قال مجاهد في سره: ولم لا تدعو أحداً منا للأنتناس بك في هذه الفيللا. إنك كتلة من الأنانية يا عمي تتحرك على قدمين. إنك مثل الزعماء الذين إذا وصلوا إلى القمة لا يريدون لأحد أن ينافسهم عليها. أو يكونون فقط على مسافة قريبة منهم. تمنعني من العمل في أمريكا. سوف تراني عما قريب هناك. وسوف أبدأ من الصفر، ثم ستجدني أتفوق عليك وأنافسك.

الرياض في ٨ / ٣ / ١٩٩٩